الإستراتيجية التضامنية في قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم مقاربة تداولية

إيهاب سعد شفطر*

ehabshaftar84@gmail.com

ملخص

يتأسس الخطاب لإبلاغ قصد ما للمتلقي، غير أنه قد لا يقتصر في الخطاب على جزئه التبليغي فقط، بل يُغلَّف بصيغ تعبر عن تقدير المتكلم للمخاطب، واحترامه له، يمكن تسميتها بصيغ التهذيب، بحيث يأتي الخطاب ضامًّا لجانبه التبليغي ومشتملا على جانب آخر تهذيبي، مما يجعل المخاطَب مُقْبِلا على ذلك الخطاب، متقبِّلا له، ومتفاعلا معه. وتُعْرف هذه الصيغ التي تُمَثِّل جانب التهذيب في الخطاب بـــ (الإستراتيجية التضامنية)، حيث تعبِّر بأدواتها وآلياتها عن تضامن المتكلم مع المخاطب، ومحاولته إنتاج خطاب مؤسَّس على إقامة علاقة طيبة مع المخاطَب قبل كل شيء.

وتمثل خطابات الأنبياء مع أقوامهم في القرآن الكريم صورة واضحة لتحقق الإستراتيجية التضامنية، مع التأكيد على خصوصية خطاب كل نبي مع قومه بالطبع، لكنها على وجه الإجمال تقوم على هذا الأساس، بحيث تتخذ الحوار وسيلة لبلوغ المقاصد، والتضامن مع الأقوام المدعوين سبيلا لإقناعهم، وبلوغ الهدف من الرسالة المُرسَل بها النبي إليهم.

لذا يتوجه هذا البحث لدراسة الإستراتيجية التضامنية في قصة نبي الله شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم، لعمومية تحققها في خطابات الأنبياء مع أقوامهم – كما مرَّ– من جهة، ولخصوصية خطاب نبي الله شعيب (عليه السلام) مع قومه، حيث سماه النبي (ﷺ) "خطيب الأنبياء"؛ لحسن مراجعته قومه؛ مما ينبئ عن توظيف ذي خصوصية لاستراتيجية التضامن في قصة شعيب (عليه السلام)، من خلال مبادئ التخاطب التداولية، مثل مبدأ التعاون عند

* أستاذ اللغويات المساعد بكلية الآداب- جامعة كفر الشيخ

(غرايس) Grice، والتأدب عند (لايكوف) Lakoff ، والتأدب الأقصى عند (ليتش) Leech وقد انقسم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الإستراتيجية التضامنية– التضامن– مبادئ التخاطب– قصة شـــعيب– مبادئ التخاطب–التداولية.

المقدمة:

إن لكل خطاب غرضا خاصا يقصد المتكلم بلوغه، وذلك عندما يتوجَّه بخطابه إلى مخاطَب بعينه راغبا في مشاركة هذا المخاطَب له في إنجاز الغرض من الخطاب وبلوغه، وذلك تحقيقا لفاعلية الخطاب وأثره. وفي سبيل تحقيق هذا وإنجازه يسلك المتكلم ما يراه من سبل فاعلة قادرة على تحقيق هدف الخطاب، وإشراك المخاطَب المتلقي له معه.

ولذا قد يرى المتكلم أن عليه أولا أن يؤسِّس لعلاقة المودَّة مع المخاطَب، أو يؤكد على هذه العلاقة إن كانت موجودة بالفعل، فلا يقتصر الخطاب على جزئه التبليغي فقط، بل يُغلَّف بصيغ تعبر عن تقدير المتكلم للمخاطب، واحترامه له، يمكن تسميتها بصيغ التهذيب، بحيث يأتي الخطاب ضامًّا لجانبه التبليغي ومشتملا على جانب آخر تهذيبي، مما يجعل المخاطَب مُقبلا على ذلك الخطاب، متقبلا له، ومتفاعلا معه.

وتعرف هذه الصيغ التي تمثل جانب التهذيب في الخطاب بالإستراتيجية التضامنية، حيث تعبِّر بأدواتها وآلياتها عن تضامن المتكلم مع المخاطب، ومحاولته إنتاج خطاب مؤسَّس على إقامة علاقة طيبة مع المخاطَب قبل كل شيء. "فإن المرسل يتلفظ بخطابه وفق مقتضى الإستراتيجية التضامنية من

تأدب وتخلُّق خطابيين، إما مراعاة لعلاقته الحسنة مع المرسل إليه، وإما بقصد تأسيسها معه بالخطاب"(١).

وتمثل خطابات الأنبياء مع أقوامهم في القرآن الكريم صورة مثلى لتحقق الإستراتيجية التضامنية، مع خصوصية خطاب كل نبي مع قومه بالطبع، لكنها إجمالا تقوم على هذا الأساس، حيث يُتخذ الحوار وسيلة لبلوغ المقاصد، ويكون التضامن مع الأقوام المدعوين سبيلا فاعلا لإقناعهم، وبلوغ الهدف من الرسالة المرسَل بها النبيُّ إليهم، وهذا يتأسس على القاعدة العامة وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (سورة النحل: من الآية ١٢٥). والحثّ على بلوغ المقصد بليِّن القول، وجمال اللفظ، وحسن الأسلوب، كما في قوله تعالى مخاطبا موسى وهارون – عليهما السلام- ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة: طه).

وإذا كانت خطابات الأنبياء تعد توجيها للأقوام بالأوامر والنواهي التي تشتمل عليها الرسالة، بحيث يمكن حمل هذه الخطابات على الإستراتيجية التوجيهية، غير أن حملها على التضامن أظْهر وأبْين، "فهناك بعض العناصر المهمة التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية، منها: سلطة المُرْسِل. وكذلك جهة المنفعة الإنجازية إما باتجاه المُرْسِل، وإما باتجاه المُرْسَل إليه، فقد تكون منفعة الخطاب عائدة على المُرْسِل دون المُرْسَل إليه، وقد تكون عائدة على المُرْسَل إليه وحده، ولذلك فقد تكون نتيجة الفعل التوجيهي ملزمة للُمْرسَل إليه عبر

سلطة المُرْسِل...وبهذا يكون استعمال الإستراتيجية التوجيهية نابعة عن علاقة سلطوية بين طرفي الخطاب"(٢).

فالأصل في التوجيه أن يكون مُؤَسَّسا على أن أحد طرفي الخطاب يمتلك السلطة التي تمكِّنه من توجيه الطرف الآخر، تلك السلطة التي تحمل الطرف الآخر؛ المتلقي على الاستجابة، وإنفاذ الطلب. "فالعلاقة الأساسية التي يكون بها هي علاقة تراتب واقعي يعاينه المتخاطبان، أو اعتباري يعتقده المتكلم، وهو تراتب أساسه أن يكون المتكلم في مرتبة أعلى والمخاطب في مرتبة أدنى"(٣). ومعلوم أن مهمة الأنبياء هي التبليغ، وليس الحمل على الاستجابة، كما أكد القرآن في مواضع شتى في خطاب النبي (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (سورة المائدة: من الآية٩٩). ، وعبَّر عن هذا إجمالا لجميع الرسل – عليهم السلام– بقوله: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النحل: من الآية ٣٥).

وتأسيسا على ما سبق توجه هذا البحث هادفا لدراسة الإستراتيجية التضامنية في قصة نبي الله شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم، لعمومية تحققها في خطابات الأنبياء مع أقوامهم – كما مرَّ– من جهة، ولخصوصية خطاب شعيب (عليه السلام) مع قومه، حيث سماه النبي (ﷺ) "خطيب الأنبياء"(٤)؛ لحسن مراجعته قومه؛ وقد ظهر في خطابه قومه ودعوته لهم درجة التميز في هذا الخطاب وتلك الدعوة من حيث توظيف مبادئ التضامن، وتحقق الإستراتيجية التضامينة، حيث يُظْهِر عنايته بتخير كل لفظة من ألفاظه، عناية تنبئ عن بلاغته (عليه السلام)، ووعيه بمقتضيات الدعوة، وملابسات السياق، وآليات الحوار والجدال، وطبيعة المتلقين، ومراتب الدعوة وسبلها؛ مما ينبئ عن توظيف ذي

خصوصية لاستراتيجية التضامن في قصة شعيب (عليه السلام)، من خلال مبادئ التخاطب التداولية، مثل مبدأ التعاون عند (غرايس) Grice، والتأدب عند (لايكوف) Lakoff، والتأدب الأقصى عند (ليتش) Leech.

ولعل في دراسة الإستراتيجية التضامنية في قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم إثراءً لجانب من جوانب التفسير، ومحاولة لرصد بُعْدٍ جَديدٍ في خطابات الأنبياء مع أقوامهم؛ اتساقا مع كون الأنبياء صفوة البشر، ولا شك أن تأسيس الخطاب على جانب التهذيب والتضامن مع المخاطَب أعلى ما يكون في خطاباتهم. وعليه جاء عنوان البحث:

(الإستراتيجية التضامنية في قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم)

"مقاربة تداولية"

وانقسم البحث مستظلا بهذا العنوان إلى مبحثين:

– المبحث الأول: (المنطلقات النظرية). حيث اشتمل على تأطير نظري للفِكَر التي يتخذها البحث أساسا للتطبيق، ولذا شمل التعريف بالإستراتيجية التضامنية، وأدواتها، وآلياتها، والتعريف بمبادئ التخاطب التداولية (التعاون، والتأدب، والتأدب الأقصى) وأهم قواعدها.

– المبحث الثاني: (المبحث التطبيقي). اشتمل هذا المبحث على تحليل استراتيجية التضامن في قصة النبي شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم في سوِّر: (الأعراف)، و(هود)، و(الشعراء)، وذلك في ضوء مبادئ التعاون، والتأدب، والتأدب الأقصى، وكذا أدوات التضامن وآلياته. حيث يمثل حضور مبدأ التعاون العناية بجانب التبليغ، في حين يمثل حضور مبدأي التأدب، والتأدب

الأقصى عناية بجانب التهذيب، مما يجعل تعانق هذه المبادئ الثلاث، وتحققها في الخطاب دليلا على رعاية جانبي التبليغ والتهذيب في آن واحد، وحضورا للاستراتيجية التضامنية وتحققا لها.

ثم كانت الخاتمة مشتملة على ثمرة التطواف. وأخيرا المراجع التي أمدت البحث من مدادها.

وبعد، فهذا اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب، فإن كان من توفيق فمن الله وفتحه ومَنِّه وكرمه، وإن كانت الأخرى فأسأل الله العفو، وحسبي أنه لم يكن عن قصد. والله أسأل أن يجنبني الزلل، فمنه العون، وبه التوفيق، ولله الحمد رب العالمين.

المبحث الأول: (المنطلقات النظرية):

- تعريف الإستراتيجية التضامنية، ووسائلها:

يعد مصطلح (الإستراتيجية) من المصطلحات المشهورة، "فهو من أكثر المصطلحات المتداولة بين الخاصة والعامة، إلا أنه مع كل ذلك يَجْهل فحواها ومعناها وخباياها حتى المتخصص في حقل الإستراتيجية، ولهذا فإنه بسبب الخلط وعدم الوضوح وكثير من سوء الفهم والتشوش، وصلنا إلى تعويض المصطلح ليعني التخطيط أو السياسات وحتى الأهداف"(٥). والأصل في استخدام مصطلح (الإستراتيجية) يعود إلى المجال العسكري، "وهو يدل هناك على طرق الوصول إلى أهداف عسكرية بعيدة المدى"(٦). ثم استعارت الدراسات اللغوية ذلك المصطلح للدلالة على "مجموع عمليات المعالجة الموجَّهة إلى هدف، والجارية عن وعي عند إنتاج الخطاب"(٧). حيث تتعلق الإستراتيجية دوما بهدف يراد بلوغه، يتوخى المُريد وسائل وأدوات وآليات لبلوغ ذلك الهدف. فهي كل محاولة لبلوغ هدف من خلال تصرف لغوي(٨).

ولأن الإستراتيجية تقصد بلوغ هدف معين، فإن ذلك يستلزم ضرورة التخطيط لبلوغ ذلك الهدف، "وبناءً عليه يتضح لنا أن الإستراتيجية خطة في المقام الأول للوصول إلى الغرض المنشود، وبما أنها كذلك – أي خطة– فهي ذات بُعْدَين، أولهما: البُعد التخطيطي، وهذا البُعد يتحقق في المستوى الذهني، وثانيهما: البُعد المادي، الذي يجسد الإستراتيجية لتتبلور فيه فعلا، ويرتكز العمل في كلا البعدين على الفاعل الرئيس، فهو يحلِّل السياق ويخطط لفعله، ليختار من الإمكانات ما يَفِي بما يريد فعله حقا، ويضمن له تحقيق أهدافه"(٩).

فتكون الإستراتيجية هي معبر الوصول إلى الهدف المنشود بلوغه، "إنها تتوسط المهام التواصلية المستنبطة من التفاعل والقيود الاجتماعية، وكذلك أهداف المشاركين في التواصل هذا من جهة، وبين الوسائل اللغوية وغير اللغوية الموضوعة لتحقيقها وتأليف بنيتها من جهة أخرى، ومن ثم تعرف الاستراتيجيات التخاطبية دائما من خلال أهداف معينة مستنبطة من التفاعل، فهي إذا تستند إلى حالة مستقبلية يطمح إليها التفاعل، ويرتبط بمكون الهدف"(١٠).

أما التضامن(١١) فهو مصطلح يشير إلى ما يوظفه الُمرْسِل منتج الخطاب من آليات ووسائل وقواعد لمراعاة حالة المتلقي لهذا الخطاب، وتأسيس العلاقة معه، أو المحافظة عليها إن كانت موجودة بالفعل، "فالإستراتيجية التضامنية هي الإستراتيجية التي يحاول المُرْسِل أن يجسِّد بها درجة علاقته بالمُرْسَل إليه ونوعها، وأن يعبِّر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالا هي محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه"(١٢). حيث ينزع المتكلم إلى توظيف الصيغ التي تعبِّر عن قربه من المُرْسَل إليه، واحترامه وتقديره له، وهذا ما يدعوه (جورج يول) George Yule بالتآزر في قوله: "يمكن عد النزوع إلى استخدام صيغ التهذيب الإيجابية التي تؤكد على التقارب بين المتكلم والسامع على أنه استراتيجية تآزر (strategy solidarity)، ويمكن أن تكون هذه هي الإستراتيجية الأساس العاملة بين مجموعة برمتها، أو أن تكون خيارا يستعمله متكلم في ظرف معين لغويا"(١٣).

ويتعلق التضامن أولا بالمسافة الاجتماعية أو العلاقة بين طرفي الخطاب، حيث إن لهذه العلاقة وطبيعتها دورا في تحديد إمكانية استخدام هذه الإستراتيجية في الخطاب وفق محددات بين المُرْسِل والمتلقي، فهذه العلاقة "تضم عناصر عدّة مثل: درجة التعارف، وتوزيع الأدوار أو الأدوار المتوقعة (المهنة والمكانة من أهم المحددات الاجتماعية للمشتركين في عملية الإنتاج اللغوي). تعيِّن هذه المحددات حقوقهم وواجباتهم وامتيازاتهم، ويرى (ديتمار) Dittmar أن محددات اجتماعية مثل الاحترام والألفة والكراهية أو غيرها مما يشخص العلاقة بين المتكلمين تعد عوامل حاسمة في تحديد السلوك اللغوي (صيغ التأدب)"(١٤).

وعلى هذا الأساس يتضامن المُرْسِل مع المُرْسَل إليه، عندما تقل رتبته الاجتماعية، أي أن اتجاه التضامن يكون غالبا من الأدنى إلى الأعلى اجتماعيا، "حيث يتضامن المُرْسِل مع المُرْسَل إليه، أو يكون لديه الاستعداد للتضامن عندما تتدنى درجة سلطته، وقد لا يتضامن المرسل أو لا يرغب في التضامن عندما تعلو سلطته، فقد يفضل أو يتعامل مع المُرْسَل إليه بخطاب رسمي يؤكد على رغبته في إبقاء الفرق بينهما كما هو، وبرغم هذا فإن هذه الرغبة ليست على إطلاقها، فقد يرغب المُرْسِل رغم سلطته في التضامن"(١٥). ولكن على الرغم من هذا قد يكون اتجاه التضامن من الأعلى رتبة إلى الأدنى، "فمن المحتمل أن يكون الشخص ذو المكانة الاجتماعية الأعلى هو الذي يستخدم صيغة المخاطبة الأكثر تضامنا، ومن هنا تنشأ علاقة أقوى من التضامن،

وينشأ استخدامها مع من هم أدنى مرتبة"[١٦]. وهذا يمثل درجة أعلى من التضامن.

وتعتني استراتيجية التضامن في المقام الأول بالجانب الأخلاقي مع التأكيد على جانب التبليغ كذلك، فكل خطاب تتحدَّد درجة نجاحه من خلال جانبين: جانب التبليغ الذي يمثل ما يراد إيصاله للمتلقي، وجانب التهذيب الذي يمثل الطريقة التي يختارها المرسل لإيصال خطابه، "فلما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عَاقِلِيَن في إلقاء الأقوال، وإتيان الأفعال لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية، أو قُلْ فائدتها التواصلية نسميها بقواعد التبليغ...كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية، أو قل التعاملية نسميها بقواعد التهذيب، مع العلم بأن مصطلح التهذيب موضوع للدلالة على التعامل الأخلاقي"[١٧].

وعليه يكون التضامن هو السبيل لضمان وجود خطاب مهذب يراعي فيه المتكلم الجانب الأخلاقي المتمثل في قواعد التهذيب، مع الأخذ في الاعتبار عدم الإخلال بالغرض الأصلي للخطاب، وهو جانب التبليغ، "فلا يستعمل المُرْسِل هذه الإستراتيجية إلا بعد أن يثق أن هذا لن يؤثر في العلاقة التراتبية، ولن يمس بمقتضياتها الأصلية أو يمحو أثرها"[١٨]. فتكون العناية في الإستراتيجية التضامنية بجانب التهذيب، وعد التبليغ في رتبة تالية وثانية له، بحيث يتخير المرسل أفضل وسيلة للتعبير عن المقصود، وليس ثمة أفضل من التقرب من المتلقي والتضامن معه.

وقد حدد عبد الهادي الشهري للاستراتيجية التضامنية وسائل لغوية تُعدُّ سبيل المتكلم لتوظيف هذه الإستراتيجية وتحقيق التضامن مع المخاطب، يقول: "لا يتجسد الخطاب إلا بوسائل لغوية...وتنقسم هذه الوسائل إلى قسمين رئيسين هما:

– الأدوات: وهي تلك الموجودة في المعجم اللغوي، مثل الإشاريات عموما.

– الآليات: وهي ذلك الشكل الخطابي الذي يختاره المرسل لينتج خطابه من خلاله. مثل: اللهجة، والتعجب، والطرفة، والمصانعة، ومصطلح المهنة، وذكر معلومة أو إغفال أخرى. ومن المُسَلَّم به أن هذه الآليات لا تتجلى إلا من خلال أدوات لغوية، وعليه فالأداة اللغوية هي عماد الخطاب"(١٩).

حيث تتبني الإستراتيجية التضامنية على الأدوات اللغوية، التي من أهمها الإشاريات، خاصة الإشاريات الاجتماعية، "وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين، من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة"(٢٠). بحيث إن استخدام هذه الإشاريات وتوظيفها تداوليا يعد مؤشرا على التضامن مع المخاطب، ودليلا على وجود الإستراتيجية التضامنية(٢١). ويمثل استخدام (العَلَم) بأنواعه الثلاثة نوعا من أنواع الإشاريات التي يتم توظيفها للتضامن مع المخاطب، ويتدرج في دلالته على التضامن من الاسم ثم الكنية ثم يكون اللقب أقلها تدليلا على التضامن(٢٢).

وإضافة إلى تلك الأدوات اللغوية قد يوظف المُرْسِل بعض الآليات التي تعبر عن التضامن مع المخاطب، من أشهرها (نكران الذات)(٢٣)، وهي آلية توافق (قاعدة التواضع) في مبدأ التأدب الأقصى عند (ليتش) – كما سيأتي– ،

و(المصانعة)[٢٤]، وهي تتلاقى كذلك مع (قاعدة الاتفاق) في مبدأ التأدب الأقصى، ومن هذه الآليات كذلك (الإعجاب أو المدح)[٢٥]، ولعلها تتلاقى كذلك مع قاعدة الاستحسان في مبدأ التأدب الأقصى، ومنها أيضا (المكاشفة)[٢٦]، و(التصغير أو التقليل)[٢٧].

– مبادئ التخاطب، وعلاقتها بالإستراتيجية التضامنية:

ترتبط الإستراتيجية التضامنية ارتباطا وثيقا بمبادئ التخاطب التداولية، حيث تمثل هذه المبادئ وسائل تحقيق التضامن، كما تُعَدُّ في الوقت ذاته شواهد على وجوده، والحقيقة أن أحد هذه المبادئ لم يخل من اعتراض، مما كان يدفع لظهور تالِيه لجبر نقصه، وتَوْفيَّة قصوره، لذا يمكن عدُّ هذه المبادئ مجتمعة تتكامل فيما بينها لتحقيق التضامن. وأهم هذه المبادئ:

١– مبدأ التعاون:

يمثل هذا المبدأ أول المبادئ التداولية الخاصة بالخطاب، ولعله أشهرها في الوقت ذاته، وهو مبدأ قائم على "أن المتخاطبين عندما يتحاورون إنما يَقْبَلون ويَتَبِعُّون عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل، فالشركاء في تفاعل لغوي يتقاسمون في العادة هدفا مشتركا، إذا انعدم لن يكون ثمة سبب للتواصل، وقد لا يتم التواصل على الأرجح"[٢٨]. ويرجع هذا المبدأ إلى (غرايس)، حيث ذكره في كتابه (محاضرات في التحاور)[٢٩].

ويقوم هذا المبدأ على أنه في كل حوار بين متخاطبين، يجب أن يتوافر لديهما الحرص على إنجاح الخطاب وإتمامه، بحيث يكون للمخاطَب الرغبة

ذاتها التي عند المتكلم لإنجاح الخطاب، "فمبدأ التعاون يمكِّن المشارك في كل تحاور من أن يتواصل بافتراض أن المشارك الآخر متعاون، وعلى هذا فمبدأ التعاون وظيفته تقوم في تنظيم ما تقوله على أنه يسهم في فعل الكلام، أو في دفع غرض الخطاب"(٣٠).

وينص مبدأ التعاون وفقا لـــ (غرايس) على أن يكون الخطاب موافقا لغرضه، وصيغة هذا المبدأ عنده "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه"(٣١). وتفرَّع عن هذا المبدأ أربع قواعد، يمكن بمراعاتها أن يتحقق التعاون بين المتكلم والمخاطب، وهي:

"١- قاعدة كمِّ الخبر: - لتكن إفادتك المخاطب على قَدْر حاجته.

- لا تجعل إفادتك تتعدَّى القدر المطلوب.

٢- قاعدة كيف الخبر: - لا تقل ما تَعْلَم كذبه.

- لا تقل ما ليس لك عليه بَيِّنَة.

٣- قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال (المناسبة): ليناسب مقالك مقامك.

٤- قواعد جهة الخبر: - لتحذر من الالتباس. - لتحذر من الإجمال.

- لتتكلم بإيجاز. - لترتب كلامك"(٣٢).

وقد حاول (غرايس) من خلال هذه القواعد ضبط الحوار بين المتحاورين، والحرص على تحقيق غرض الخطاب، وضبط العوامل التي تساعد في جعله فاعلا ناجحا، "فقاعدة الكم تُعَدُّ حدًّا دلاليا القصد منه الحيلولة دون أن يزيد أو ينقص المتحاوران من مقدار الفائدة المطلوبة...وقاعدة الكيف القصد منها منع ادعاء الكذب أو إتيان الباطل، ولهذا يطلب من المتكلم ألا

يورد من العبارات سوى التي وَقَف على دليل ليثبت صدقها. وقاعدة العلاقة (المناسبة) هي بمنزلة حدٍّ مقصدي الهدف منها منع المتكلم من أن ينزلق إلى مقاصد أخرى مخالفة لتلك التي استهدفها الخطاب، أي يُرَاعي علاقة المقام بالمقال. أما قاعدة الجهة فمدار اختلافها عن القواعد السابقة من حيث كونها لا ترتبط بما قيل، بل بما يراد قوله، والطريقة التي يجب أن يقال بها، والهدف منها تجنب الاضطراب والملل والإيجاز المخل في القول"(٣٣).

مبدأ التعاون وعلاقته بالاستلزام الحواري:

يعني الاستلزم الحواري المعنى غير المباشر الذي يُحَصِّله المخاطَب، "إنه مقصد المتكلم الذي يدركه المخاطَب دون تصريح المتكلم به، هذا الإدراك يحصل عن طريق خرق أحد المبادئ الحوارية، أو عن طريق السياق التداولي، ومن ثم فهو قصد غير مباشر"(٣٤).

وقد نشأت فكرة الاستلزام الحواري عند غرايس مرتبطة بمبدأ التعاون ومستظلة به، "فقد كان ما يشغل غرايس هو كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطَب شيئا ويفهم شيئا آخر؟، وقد وجد حلا لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون...فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن، فنشأت فكرة الاستلزام"(٣٥). فقد لاحظ (غرايس) أن المتكلم ليس بالضرورة أن ينطق بما يقصده مباشرا، بل قد يلجأ إلى عدم التصريح بمقصده، فيكون المعنى المستلزم حواريا.

ويتولَّد الاستلزام الحواري وفقا لغرايس عندما لا يراعي المتخاطبون مبدأ التعاون، بل حتى مع محافظتهم على المبدأ العام (التعاون)، مع خرق

إحدى مبادئه الفرعية[٣٦]، "وعليه إذا كانت الاستلزامات الحوارية تتفرع إلى تلك التي تتولد عن احترام المبدأ العام والقواعد الحوارية وتلك التي تتولد عن خرق قاعدة أو قواعد معينة، فهذا يبين أن المدلول المستلزم حواريا قد يتولد عن الإخلال بقاعدة فرعية، مع الاستمرار في احترام القواعد الأخرى والمبدأ العام، وقد يتولَّد عن إخلال المتكلم بإحدى القواعد على الأقل، كما يتولَّد وهو يحترمها جميعا"[٣٧].

ولم يسلم مبدأ (التعاون) الذي قدمه (غرايس) من الاعتراض والانتقادات، فقد وجد أنه لا يقدِّم نموذجا متكاملا لتحليل الخطاب وضبطه تداوليا، "وقد بَلَغَت الاعتراضات التي وردت على مبدأ التعاون والتعديلات التي أُدْخلت عليه بلغت النهاية، بيد أنه لا يستوقفنا من ذلك في هذا الموضع إلا اعتراض واحد، وهو أن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة عنه لا تراعي إلا الجانب التبليغي من التخاطب، أما الجانب التهذيبي منه فقد أسقط اعتباره إسقاطا"[٣٨]. فمبدأ التعاون عند غرايس يركز على جانب التبليغ في الخطاب، أما جانب التهذيب فلم يتوجه هذا المبدأ إليه بالعناية، "حيث تبقى القواعد التي بسطها غرايس في نظريته في كثير من جوانبها قاصرة عن ضبط الحوار، وتقنينه تقنينا مضبوطا، ومن ثم فلابد من اقتراح قواعد بديلة أو إضافية أخرى مُكَمِّلة لمبدأ التعاون"[٣٩].

وقد كان هذا دافعا لتعديل هذا المبدأ وجبر نقصه فيما تلاه من مبادئ تخاطبية تداولية، مثل مبدأ التأدب، والتأدب الأقصى اللذين اعتنيا بالجانب التهذيبي الذي أُهْمِل في مبدأ التعاون عند (غرايس).

٢- مبدأ التأدب، والتأدب الأقصى:

ركَّز مبدأ التعاون على جانب التبليغ في الخطاب، وأهمل جانب التهذيب – كما سبق–، لأجل ذلك أكدت المبادئ التالية له على جانب التهذيب، وقامت صياغتها على مراعاة هذا الجانب مع مراعاة التبليغ كذلك، وأول هذه المبادئ هو مبدأ (التأدب)، وهو ذلك المبدأ الذي يراعي (الذات المتأدبة) للمتكلم – على حد تعبير د.طه عبد الرحمن–، الذي يحدد أدوار المتكلم بقوله: "لا علاقة تخاطبية إلا بين جانبين فأكثر، يكون للمتكلم فيها فضل السبق في إقامتها، كما يكون له حق الانتهاض فيها بأدوار مختلفة، مما يجعله لا ذاتا واحدة، وإنما ذوات متعددة بعضها فوق بعض، تنزل (ذاته الناقلة) أدنى المراتب، وهي الذات التي لا تجاوز بالقول حد ظاهر معناه تصريحا وتحقيقا، تليها (ذاته المبلِّغة)، وهي الذات التي تأخذ بباطن الأقوال تلميحا وتجوزا فضلا عن ظاهرها...وتأتي في المرتبة فوقها (ذاته المتأدبة)، وهي الذات التي لا تجاوز بفعل القول حد عاجل الانتفاع به؛ تحقيقا لغرض أو طلبا لعوض"(٤٠).

وقد انبنى على هذا الجانب مبدأ التأدب، "وهو المبدأ التداولي الثاني الذي ينبني عليه الحوار، وقد أوردته (روبن لايكوف) Robin lakoff في مقالتها الشهيرة (منطق التأدب)، ويصاغ هذا المبدأ على النحو التالي (لتكن مؤدبا)، ويقضي بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب، ما لا يقل عما يلتزمان به من جانب التبليغ"(٤١). حيث يتأسس مبدأ التأدب على كون المتكلم محمولا في خطابه على التهذيب والقول المهذب(٤٢).

وقد فرعت (لايكوف) عن مبدأ التأدب ثلاث قواعد فرعية، يصوغها د.طه عبد الرحمن كما يلي:

"١- قاعدة التعفُّف: ومقتضاها لا تفرض نفسك على المخاطب. وتوجب قاعدة التعفف على المتكلم ألا يستعمل من العبارات إلا ما يمكنه من حفظ مسافة بينه وبين المخاطب...ولا يحمله على فعل ما يكره محترزا من استخدام عبارات الطلب المباشرة، ولا يقتحم عليه شئونه الخاصة إلا بالاستئذان قبل الكلام فيها والاعتذار بعده.

٢- قاعدة التشكُّك: ومقتضاها لتجعل المخاطب يختار بنفسه. وتقتضي أن يتجنب المتكلم أساليب التقرير، ويأخذ بأساليب الاستفهام، كما لو كان متشككا في مقاصده، وبحيث يترك للمخاطب مبادرة اتخاذ القرار(٤٣).

٣- قاعدة التودُّد: ومقتضاها لتظهر الود للمخاطَب. وهي توجب على المتكلم أن يعامل المخاطب معاملة الند للند، ولا تفيد هذه المعاملة إلا إذا كان المتكلم أعلى رتبة من المستمع، أو في رتبة مساوية لمرتبته"(٤٤).

وبهذا يظهر أن هذا المبدأ قد ركز على جانب التهذيب في الخطاب وقواعد الأدب التي تُقرِّب بين المتخاطبَيْن، وتؤكد علاقة التضامن بينهما، "وبهذا يتضح أن مبدأ التأدب الذي اقترحته (لايكوف) يفضل مبدأ التعاون الذي اقترحه (غرايس) على اعتبار أنه يجمع بين الجانبين التبليغي والتهذيبي من الخطاب، بالإضافة إلى أنه يتفرع إلى قواعد تنظم هذا الجانب، ويفتح باب رد التبليغ إلى التهذيب"(٤٥).

وفي تطور لمبدأ التأدب من جهة، وتطويرا وإكمالا لمبدأ التعاون من جهة أخرى، ظهر مبدأ تداولي آخر هو مبدأ (التأدب الأقصى) – كما أسماه د.طه عبد الرحمن– الذي أورده (ليتش) Leach في كتابه (مبادئ التداولية)[٤٦].

وسوف أعرض هذا المبدأ بصياغة د.طه عبد الرحمن له؛ إيثارا للإيجاز، ولتحقق الفائدة المقصودة بذكره في هذا المقام من هذا الإيجاز. يقول: "يصوغ – أي ليتش– المبدأ في صورتين اثنتين: إحداهما سلبية هي: (قلِّل من الكلام غير المؤدب)، والثانية إيجابية هي: (أكثر من الكلام المؤدب). وتتفرع على مبدأ التأدب الأقصى قواعد ذات صورتين: سلبية، وإيجابية.

– قاعدة اللباقة: وصورتاها هما على التوالي: أ– قلِّل من خسارة الغير.

ب– أكثر من ربح الغير.

– قاعدة السخاء: وصورتاها هما: أ– قلِّل من ربح الذات.

ب– أكثر من ربح الذات.

– قاعدة الاستحسان: وصورتاها هما: أ– قلِّل من ذم الغير.

ب– أكثر من مدح الغير.

– قاعدة التواضع: وصورتاها هما: أ– قلل من مدح الذات.

ب– أكثر من مدح الذات.

– قاعدة الاتفاق: وصورتاها هما: أ– قلِّل من اختلاف الذات والغير.

ب– أكثر من اتفاق الذات والغير.

– قاعدة التعاطف: وصورتاها هما: أ– قلل من تنافر الذات والغير.

ب- أكثر من تعاطف الذات والغير."[٤٧].

وإذا كان هذا المبدأ قد ركَّز بصورة كبيرة على جانب التهذيب في الخطاب، وتفرَّع إلى قواعد جزئية تؤكد على توطيد العلاقة بين المتخاطبين، وتوكيد التضامن بينهما، إلا أن هذه المبادئ ليست صالحة للتطبيق على كل خطاب، وليس لها وجه إيجابي دوما – كما سيتبين حال تطبيق هذه المبادئ في قصة نبي الله شعيب (عليه السلام)-.

وخلاصة ما تقدم عرضه من مبادئ الخطاب السابقة، "أنها تنبني على نوعين من المبادئ: نوع تبليغي، وآخر تهذيبي، وأن هذه المبادئ تتفاضل فيما بينها تبعا للغاية المتوخَّاة من الخطاب"[٤٨]. وإذا كان مبدأ التأدب، والتأدب الأقصى ألصق بطبيعة التضامن وأقرب إليه، بكونه يؤسِّس للعلاقة مع المرسل إليه ويؤكد عليها، فإن مبدأ التعاون كذلك قد يكون مؤشِّرا على تحقيق التضامن ودليلا عليه، لأنه يشمل جانب التبليغ الذي يُهذَّب بجانب التهذيب، والذي يمثل التهذيب غلافه، فالتضامن تبليغ قائم على التهذيب.

المبحث الثاني: (المبحث التطبيقي):

أتناول في هذا المبحث تحليل الإستراتيجية التضامنية في قصة شعيب (عليه السلام) من خلال مواضع ورودها في القرآن الكريم، وقد وردت القصة في القرآن الكريم في المواضع التالية:

سورة (الأعراف)	**الآيات من (٨٥-٩٣)**
سورة (هود)	**الآيات من (٨٤- ٩٥)**
سورة (الشعراء)	**الآيات من (١٧٦-١٩٠)**
سورة (العنكبوت)	**الآيتان (٣٦، ٣٧)**

وكما يظهر من مواضع ورود القصة في القرآن الكريم أن دعوة شعيب (عليه السلام) لقومه قد تكررت في مواضع شتى، والذي يبدو – والله أعلم- أن هذه المقاطع ليست تكرارا لموقف واحد، وإنما هي حكاية لموقف تكرر أكثر من مرة بصور مختلفة، فليس يعقل أن يدعو شعيب (عليه السلام) قومه مرة واحدة، فلابد أن ذلك تكرر منه أكثر مرة، وقد سجل القرآن هذا بذكره هذه المقاطع، الذي يمثل كل منها موقفا منفصلا في دعوة شعيب (عليه السلام) قومه، حيث يمثل تكرار ذكر دعوة الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم التعبير عن تكرار دعوة هؤلاء الأقوام.

يقول الغرناطي (ت٧٠٨هـ) معبرا عن هذا المعنى: "إن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد، ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب، فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، وقد يخاطب ملأهم الأعظم في مواطن، والفئة

القليلة منهم في موطن آخر، وربما أطال في موطن وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرونه أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم"(٤٩).

فالاختلاف في هذه المقاطع إنما هو لاختلاف مواقف الدعوة، وتكرار مخاطبتهم وحثهم على الإيمان. لذلك فإن لكل موقف من هذه المواقف خصوصية تظهر فيها درجة من التضامن، ويبدو – والله أعلم– أن مقطع سورة (هود) يمثل مرحلة أولى في الدعوة، لذا يعد أظهر هذه المواقف في توظيف استراتيجية التضامن، ثم يليه مقطع سورة (الأعراف) الذي يمثل مرحلة تالية في الدعوة، وأخيرا مقطع سورة (الشعراء) الذي يمثل مرحلة متأخرة في دعوة شعيب (عليه السلام) لقومه. وإجمالا فإن لخطاب شعيب (عليه السلام) خصوصية من حيث مراعاة جانب التعامل مع مراعاة جانب التواصل، والحرص على التبليغ عن طريق التهذيب، حيث "كان يقال لشعيب (عليه السلام) خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه"(٥٠). كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وسوف أحلل هذه المقاطع وفقا لتدرجها في توظيف الإستراتيجية التضامنية بهذا الترتيب: مقطع سورة (هود)، ثم مقطع سورة (الأعراف)، ثم مقطع سورة (الشعراء).

أما المقطع المذكور في سورة (العنكبوت) فهو مقطع قصير قياسا بغيره من المقاطع، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (العنكبوت). وقد كان ظهوره في هذه السورة

بهذا القصر لغرض يتطلبه السياق الذي ذكر فيه، فالقصة بتفصيلاتها وأحداثها التي ذُكْرَت في القرآن في حوالي (٣٥) آية، قد أوجزت في هاتين الآيتين، فهاتان الآيتان تمثلان الأحداث الرئيسة للقصة، فالقصة يذكر فيها هنا (أُرْسِل شعيب إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله، فكذبوه، فأهلكم الله بالرجفة).

إن كل الأحداث الأخرى التي ذكرت في هذه القصة على امتداد النص القرآني من دعــوة شعيب لقومه، ومجادلتهم له، ورده عليهم...قد أضمرت في هاتين الآيتين، وهذا الإضمار يفسِّره السياق ويوضحه. فهذا المقطع ظهر في هذه السورة لغرض محدد، ذلك أن الله (ﷻ) قد أشار في هذه السورة (العنكبوت) إلى سنن إهلاك الظالمين، فقال (ﷻ): ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (العنكبوت). فناسب هذا التفصيل في سنن الإهلاك ذكر من هلكوا بالصيحة (الرجفة)، وهم قوم شعيب (عليه السلام)، ولذا لم تذكر في هذا المقطع تفصيلات القصة التي ذكرت في غيره، فتحقق في ذكر القصة بهذا القدر الغرض الذي سيقت لأجله، وهو الأمر ذاته الذي حدث في ذكر قارون بمجرد إشارة في قوله (ﷻ): ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (العنكبوت). لمناسبة قوله (ﷻ): ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (العنكبوت: من الآية ٤٠). وتقدم ذكر قوم لوط لمناسبة قوله (ﷻ): ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ (العنكبوت). وذكر ثمود بإشارة كذلك في قوله (ﷻ): ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾(العنكبوت). لمناسبة قوله (ﷻ): ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ (العنكبوت).

فذكر سنن الإهلاك للظالمين ناسب ذكر هؤلاء الظالمين، ولذا كان ذكرهم في هذا المقام بالقدر الذي تتطلبه الإشارة إلى هلاكهم، دون ذكر تفصيلات في قصصهم، وهو الأمر الذي يفسر إضمار أحداث هذه القصة للمتلقي في هذا الملخص العام لها، فالغرض كان حدوث العبرة؛ وصولا إلى النتيجة التي قررتها هذه السورة عقب ذكر سنن إهلاك الظالمين ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(العنكبوت). والمتلقي من خلال هاتين الآيتين يستطيع فهم الملامح الرئيسة للقصة، فقد أعطى هذا المقطع مع ما فيه من إضمار ملامح القصة بكاملها.

ولذلك فلن أتعرض لتحليل مقطع سورة (العنكبوت) هنا وفق الإستراتيجية التضامنية، اكتفاءً بالمقاطع الثلاثة الأطول التي يظهر فيها التضامن بصورة أوضح، لكنني سوف أستأنس به في تحليل المقاطع الثلاثة الأخرى.

أولا: التضامن في مقطع سورة (هود):

- قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ

فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

يبدو – والله أعلم– أن هذا المقطع يمثل المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، التي كان شعيب (عليه السلام) بادئا فيها بدعوة قومه؛ لذلك كان أظهر المقاطع الثلاثة في ظهور الإستراتيجية التضامنية، وتوظيف آلياتها وأدواتها.

وفي هذا المقطع تجلَّى حضور مبدأ التعاون بكل قواعده، وهو المقصود تبليغه القوم، حيث تحققت (قاعدة الكم) عندما جمع للقوم كل ما يحتاج النبي إبلاغ قومه به، حيث تدور دعوة النبي – كل نبي– حول أمرين: الأول: هو دعوة القوم إلى عبادة رب واحد هو رب العالمين، وترك كل ما يعبد من

دونه، والآخر: هو التحلِّي بمكارم الأخلاق، وترك الفواحش والمنكرات ظاهرا وباطنا، "فالأنبياء كلهم أمروا بإفراد الله (ﷻ) بالعبادة، واتقاء عذابه بالتزام الطاعات وامتثال الأوامر والنواهي، وكلهم أَمَر ونَهَى وأوضح لقومه طريق النجاة، وحذرهم من المهالك"(٥١).

فقد أمرهم نبي الله شعيب (عليه السلام) بعبادة الله (ﷻ) في قوله: (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ)، ثم نهاهم عن إنقاص الكيل والميزان، بقوله: (وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ)، ثم الأمر بتوفية الكيل والميزان، بقوله: (أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ)، كما نهاهم عن البخس، والفساد في الأرض، بقوله: (وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ)، فجاء الخطاب جامعا لكل مطالب البلاغ، "فأمرهم بثلاثة أمور: أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر. وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض. ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي لأن إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان. فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم، وهي خيانة المكيال والميزان"(٥٢). فجاء الخطاب جامعا لدعوة النبي ورسالته.

أما قاعدة (الكيف)، التي تقتضي قول الصدق، فشعيب (عليه السلام) لم ينطق سوى بالصدق، ولم يقل ما ليس عنده عليه دليل، فهو نبي مرسل، نطق بما أمر به، وما تحقق عنده صدقه وَحْيا، ظهر هذا في تدليله على صدقه بقوله: (أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗا)، "والمراد بالرزق الحسن هنا

هو نعمة النبوءة"[٥٣]. فكان قوله قول النبي المستبين لما يقول، وتأسس الخطاب كله على بينة ودليل، يظهر هذا في قوله: (وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ)، (وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ)، (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ)، (سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ). فتبين في كل هذا أنه ليس ناطقا إلا عن بينة ودليل يؤكد صدقه.

ويلاحظ هنا أن طرح نبي الله شعيب (عليه السلام) لأدلة التبليغ تأخذ نمطا من التدرج، مما يجعل المتلقي على درجة عليا من الترقي في الانتباه للخطاب المُنْجَز، فجاء التدرج على النمط التالي:

– يبدأ بإبداء فعل (التعاطف) مع قومه، وإظهار عاطفة الخوف عليهم من العذاب الإلهي (وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ)، مما يعد من باب الحرص عليهم.

– استخدم استراتيجية (الترغيب) فيما عند الله (سبحانه وتعالى)، من الثواب والرحمة إن هم عادوا وتابوا إلى ربهم واستغفروه (وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ)، مع ربط هذا الفعل منهم بالقبول من عند الله، لأنه رحيم ودود (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ)، مما يُشَوِّق النفوس والقلوب إلى إدراك هذه الدرجة.

– ثم يشير نبي الله شعيب (عليه السلام) حسب سياق الموقف والدعوة إلى حضور (العلم الرباني) في قوله: (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ)، واطلاع الله (سبحانه وتعالى) على كل ما قاموا وما يقومون به يبث في النفوس الخوف من قيامهم بهذه المعاصي والذنوب، لأن الإله محيط بها، مما يعرضهم لعقابه.

– ومع عناد القوم واستمرارهم على ما هم عليه يوضح لهم (مآل التجبر وعاقبته)، فهم إن اختاروا الاستمرار في العصيان والتجبر، فعليهم تحمل عاقبة أفعالهم (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ).

وقد جاء هذا النمط المتدرج في طرح الأدلة مراعيا سياق الدعوة، وحالة المتلقي لهذا الخطاب، وجاءت الأدلة والحجج متدرجة منطقيا ونفسيا تراعي كل الأبعاد المطلوبة لحالة المتلقي، مما يدل على وعي المرسل/نبي الله شعيب (عليه السلام) بمراعاة أحوال متلقي الخطاب، وما هو عليه من سمات وخصائص، وما يصلح له من استراتيجيات وأساليب.

ثم كان تحقق قاعدتي المناسبة، والطريقة، فجاء المقال مناسبا للمقام، من حيث البدء بالدعوة إلى التوحيد، وهذا أول عمل النبي، وأَوْلى مطلوب منه، ثم ما يلي ذلك من دعوة إلى توفية الكيل وعدم إنقاصه، "فالأنبياء –عليهم السلام– يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، فلهذا قال شعيب (عليه السلام): (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان، دعاهم إلى ترك هذه العادة فقال: (وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)"[٥٤].

وكان الخطاب واضحا مباشرا، لا لبس فيه، ولا غموض، غير مجمل، مرتبا وفق سياق الخطاب، ومراعاة حال المتلقي، لذا وقع منه تكرار الأمر بالقسط في الموازين، بنهيهم عن البخس والإنقاص مرة، وأمرهم بتوفيتها مرة أخرى، وذلك تأكيدا لشناعة فعلهم، وحثهم على العدول عن هذا، وترقية نفوسهم بتطهيرها من الظلم والطمع، بحيث ينصلح حالهم لو فعلوا هذا،

"فنهاهم أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأنّ في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه"(٥٥).

وبذلك فقد كان نبي الله شعيب (عليه السلام) متعاونا في خطابه، حريصا على نجاحه، بمراعاته لكل قواعده وأسسه، على عكس القوم الذين لم يظهر في خطابهم حرصهم على نجـــاح الخطاب، أو التعاون مع المتكلم – شعيب (عليه السلام)–، حيث جاء ردهم عليه لما أمرهم بعبادة الله، وتوفية الكيل، (أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ)، "فقصدوا بقولهم: (أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ) السخرية والهزء، وكما أنك إذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسدا فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء والسخرية فكذا هاهنا"(٥٦). فقولهم على طريق الاستهزاء والسخرية يعد خرقا لمبدأ التعاون، ولواذا بهذا الاستفهام المستنكِر أمر شعيب (عليه السلام) لهم، لكونهم غير راغبين في الاستجابة له، وليس لديهم سبيل للجواب سوى هذه السبيل.

إن القوم هنا تعمدوا تجاهل فكرة الألوهية تماما، عندما خاطبوه (أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ)، وليس (أربك/أإلهك يأمرك)، فهم هنا لا يريدون الإقرار بفكرة الألوهية لأنهم أهل كفر وضلال. ثم إن ذكرهم لمسألتي: (العبادة) في قولهم (أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ)، والتجارة (أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ) يشعر المتلقي بأنهم يرفضون تماما فكرة (المحاورة) أو (الحجاج) وصولا إلى الاقتناع، فهم

يغلقون أي باب يؤدي إلى الحقيقة، بل ويتخذون من السخرية بابا لإيصال هذا الرفض الكلي لما جاء به نبي الله شعيب (عليه السلام).

وكذلك عدم الاعتناء بقوله في قولهم: (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ)، "قالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدرى ما تقول"(٥٧). وقد كان قولهم (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) إقرارا منهم بأنهم ليسوا أهل علم وفقه؛ لأنهم لو كانوا كذلك لاستجابوا لما جاء به نبيهم، وقد جاء توظيف الفعل (نفقه) بما يدل عليه من تدقيق وتمحيص لمنطوق الخطاب الوارد ومفهومه، كذلك يتضافر مع توظيف الفعل نفقه توظيف لفظة (كثيرا)؛ دلالة على سفههم وقلة فهمهم، مما يعد أوضح صورة للتعبير عن حالهم، وموقعهم الذي هم عليه. بل قصدوا بوصفهم إياه بأنه الحليم الرشيد، في قولهم: (لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) التهكم والسخرية به، بقصدهم عكس هذين الوصفين(٥٨). وهذا نقض لمبدأ التعاون، من ناحية الكم، والكيف، والمناسبة.

ثم تطور الأمر بهم في عدم استجابتهم، ونقضهم لمبدأ التعاون أن لجأوا إلى التهديد، في قولهم: (وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ). أي أنه فيه وحدهم، لا يمنعهم عنه سوى رهطه الذي هو منهم، ولو أرادوا الأذى له لفعلوا، فمقالهم هذا معناه: "لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها، ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام

لهم، ولا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا"(٥٩).

ويلاحظ هنا تدرج القوم في إيصال خطاب التهديد إلى نبي الله شعيب (عليه السلام)، فقد اعتمد هذا الخطاب التهديدي على ما يلي:

- إظهار ضعف المجادِل المناظِر وهوانـــه على المجموع (وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا)، من خلال مقارنته بالوسط المناظَر (فِينَا ضَعِيفًا)، إذ قدَّموا المجموع المشكِّل للقوة (فينا)، ثم تلا ذلك ذكر الصيغة المراد إلصاقها بالمناظِر (ضعيفا)؛ تهوينا لعزيمته وإخضاعا لهمته.

- كسر الإرادة النفسية للمناظِر بإظهاره لا قوة له ولا منعة إلا لأجل رهطه، (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ)، وأنه لا يقدَّر عندهم بأي قدر إلا بانتسابه لهذه الأسرة.

- نفي المشاعر الإيجابية تجاه هذا المناظِر تماما (وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)، مما يفتح الباب واسعا لكل الاحتمالات السيئة في حقه، معطين المَسَوِّغ لكل من يريد إيذاء نبي الله شعيب (عليه السلام)، هنا دعوة ضمنية لممارسة الإيذاء والإساءة في حقه.

أما مبدأ (التأدب) فقد تم توظيفه في هذا المقطع على لسان شعيب (عليه السلام) توظيفا يناسب مقام الدعوة باللين والرفق، وتأسيس علاقة المودة مع القوم والتأكيد عليها، ويوافق ما وصف به شعيب بكونه (خطيب الأنبياء)، وكونه في أول دعوة القوم التي يُرْجى معها استجابتهم، محققا لقواعده الثلاثة (التودد- التعفف- التشكك)، وأشير هنا إلى أنه ليس بالضرورة أن تتحقق هذه القواعد مجتمعة في خطاب واحد، "فهذه القواعد تتفاوت قوة فيما بينها، حيث إن القيام

ببعضها قد يسقط العمل بالبعض الآخر، فبحيث تصلح قاعدة التودد قد لا تصلح قاعدة التشكك، وحيث تفيد قاعدة التعفف قد لا تفيد قاعدة التشكك، كما أنه حيث تنفع قاعدة التشكك فقد لا تنفع قاعدة التودد"(٦٠).

وقد بدا شعيب (عليه السلام) متوددا لقومه، محققا لقاعدة التودد، الذي كان من أظهر دلائلها ذلك النداء الذي بدأ به خطابه معهم، بقوله (يا قوم)، ناسبا نفسه إليهم، ومبينا لهم أنه واحد منهم، وهو نداء "دال على النصيحة والشفقة بالتذكير بالقرابة"(٦١). وقد تصدر هذا النداء كل جملة خاطبهم بها، حيث ورد في هذا المقطع (ست مرات)، واستمر هذا النداء في كل مراحل الخطاب في هذا المقطع، ابتداءً، وبعد سخريتهم به، بل حتى بعد تهديدهم إياه، واستخدام هذه اللفظة في ندائهم دليل على التضامن معهم، إذ جعل نفسه داخلا في جملتهم، وهي إشارة اجتماعية تقوي العلاقة بين المتكلم والمرسل، "فاستعمال الإشاريات في الإستراتيجية التضامنية له فوائد كثيرة، منها تأسيس العلاقة الاجتماعية والإسهام في تطويرها، وقد تكون مؤشرا على الانتماء إلى جماعة معينة، أو دليلا على الاتفاق معها في الرأي"(٦٢). فدلَّل بهذا النداء على انتمائه إليهم، وعدم مباينته لهم، ونسبة نفسه إليهم، مما يقوي العلاقة معهم، ويحافظ على الصلة بهم، ويشفع لقبول الخطاب منهم، واحتمالية الاستجابة، وفاعلية التلقي.

على عكس القوم الذين ينادونه باسمه المجرد في ندائهم إياه (يا شعيب) في موضعين، كما يظهر في قوله تعالى: (يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟)، وقوله تعالى: (يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا

مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)، وهو النداء الدالُّ على عدم التودد، وانتفاء القاعدة في خطابهم معه، فنداؤهم إياه باسمه المجرد تأكيد على عدم إيمانهم بنبوته، وتعضيد لعدم تصديقهم لرسالته ودعوته، ولذا يناودونه باسمه مجردا.

وإذا كانت الدلالة على التضامن تتحدد بما يختاره المتكلم من صيغ متاحة لنداء المخاطَب كما يحدد هدسون بقوله: "لكل فرد عدد من الأسماء المختلفة يمكن مخاطبته بها، منها اسمه الأول، أو اسم العائلة، أو اللقب إن وجد مثل (Mr أوProfessor)، وينبغي لنا أن نفحص صيغتين فقط من هذه الأسماء، هما صيغة الاسم وحده، مثل (John)، وصيغة اللقب التي يتبعها اسم الأسرة مثل (Mr.Brown). كيف إذن يقدر الفرد مخاطبة (John Brown) سواء بصيغة الاسم (John)، أم بصيغة اللقب واسم الأسرة (Mr.Brown)، ترتبط الإجابة عن هذا السؤال بكل من القوة والتضامن"(٦٣).

أي أنه من المقرر تداوليا أن استخدام صيغة الاسم أقوى في الدلالة على التضامن، فإذا اختار المتكلم دعوة المخاطب باسمه الأول وليس لقبه أو كنيته، فقد اختار أعلى أقسام العلم دلالة على التضامن، "حيث تفاوت الأدوات اللغوية الدالة على العلم (الاسم والكنية واللقب) من ناحية تجسيد الإستراتيجية التضامنية، فأبرزها هو الاسم، فالكنية، فاللقب، وهذا هو ترتيبها في قوة دلالتها على التضامن"(٦٤). لكن يبدو أن هذا المبدأ ليس مطردا في كل خطاب، ولا يمكن التسليم به على عمومه، فدعوة القوم شعيبا (عليه السلام) باسمه الأول فقط

مجردا، ليس دلالة على التضامن، ففي الموضعين "سموه باسمه جفاء وغلظة"(٦٥).

وقد نظم شعيب (عليه السلام) خطابه في هذا المقطع متوددا لقومه فيما تخيره من ألفاظ، مثل: (وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ)، (إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ)، (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ)، حيث بدا متلطفا معهم، حريصا على تخير الألفاظ التي تعبر عن الرحمة والتلطف، على الرغم مما بدر في لغة القوم من عناد وجحود وغلظة وسخرية. ولذا فقد تحققت قاعدة التودد في خطاب شعيب (عليه السلام) في هذا المقطع تحققا يناسب سياقه، ويتوافق مع دافع النبي في تحريك قلوب القوم، ودفعهم إلى الاستجابة والإيمان.

وفيما يتعلق بقاعدتي التعفف والتشكك، اللتين تنصان على ترك المخاطَب يختار بنفسه، وعدم فرض المتكلم نفسه عليه، وعدم إرغامه بأي صورة، فقد تحققتا في هذا المقطع في ضوء السياق، وطبيعة موقف الدعوة وخطاب النبي لقومه، حيث سلك نبي الله شعيب (عليه السلام) طريق الإقناع، ولم يكره القوم على شيء، بخروج الأمر والنهي المباشر لهم (اعبدوا الله- أوفوا المكيال والميزان- استغفروا ربكم- توبوا إليه- اعملوا على مكانتكم- ارتقبوا)، (لا تنقصوا المكيال- لا تبخسوا الناس أشياءهم- لا تعثوا في الأرض مفسدين) من معنى الإلزام إلى معنى النصح والإرشاد، وهو المعنى الذي يتحدد في ضوء السياق، وكون حقيقة النبوة هي نصح قومه وتبليغهم الرسالة – كما تقدم-، كما قال تعالى على لسان نبي الله نوح (عليه السلام)(أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢) (سورة: الأعراف). وعلى لسان نبي الله

هود(عليه السلام): (أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾) (سورة: الأعراف). وعلى لسان نبي الله صالح (عليه السلام): (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾) (سورة: الأعراف). وعلى لسان نبي الله شعيب (عليه السلام) نفسه: (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾) (سورة: الأعراف).

وإن كان نبي الله شعيب (عليه السلام) يكرر الدعوة لقومه، وينوع لهم في طرق الإقناع والنصح بين الأمر، والنهي، وذكر العاقبة، وبيان مصدر الرسالة، بحيث يبدو غير تارك حرية الاختيار لهم، بل راغبا في حملهم على الاستجابة – بالحكمة والموعظة–، لأنه لم ينه خطابه بمجرد رفضهم وسخريتهم من الدعوة، بل عاود ردَّه عليهم راغبا في استجابتهم وهدايتهم إلى ما يدعو إليه، حتى وصل الأمر إلى تهديدهم، في قوله: (وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ)، وقوله: (إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)، وقوله: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) الأمر الذي يبدو خرقا لقاعدتي التعفف والتشكك اللتين تنهيان عن كل صورة لحمل المخاطَب على ما لا يرغب، لكن وضع هذا في سياقه يظهر عدم خرق هاتين القاعدتين، حيث إن لرسالة النبي جانبين: التبشير والإنذار، كما قال الله (سبحانه وتعالى): (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)(سورة البقرة: من الآية٢١٣). وقال (سبحانه وتعالى): (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ

وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾) (المائدة). "والمراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقـــاب...والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب"(٦٦). فكما يبشر النبي الطائعين، فإنه كذلك ينذر العصاة ويهددهم بالعقاب، وهو تهديد باعثه الخوف على المخاطَب، وحثه على الاستجابة، والرغبة في الانتقال من ضيق الكفر إلى رحابة الإيمان والطاعة.

لذلك فالسياق القرآني هو المحدد للدلالة الحقيقية في هذا الموقف، بحيث يوجِّه القصد دلالة الخطاب، وبحيث يكون غرض المتكلم هو الموجِّه لتلك الدلالة، فقد قصد نبي الله شعيب (عليه السلام) بهذا التهديد تحريك قلوبهم وأفهامهم، ومن ثم تحقق النجاة من العذاب المقدَّر للعصاة، فظاهر الخطاب أنه حَمْل للمخاطب على ما لا يرغب، بحيث يمثل خرقا لمبدأ التأدب، لكن حقيقته أنه درجة عليا من التأدب، يأتي من الحرص على القوم، والرغبة في نجاتهم من العذاب، والسمو بنفوسهم بتوجيههم إلى طريق الله، والفوز بالنعيم المعد للطائعين. أضف إلى ذلك أن هذا التهديد للقوم جاء مقابلا لتهديدهم نبي الله شعيبا (عليه السلام).

كذلك من أمارات التأدب في هذا التهديد أنه لم يأت صريحا، بل ضمَّن نبي الله شعيب (عليه السلام) التهديد في كلامه غير مصرِّح به، في قوله: (سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ)، فلجأ إلى الاستلزام الحواري في التعبير عن هذا المعنى، حيث قال لهم لننتظر وقوع العذاب، ولا شك أن وقوع العذاب للقوم المكذبين، وليس للنبي المرسل لهم، وفي هذا تأدب مع القوم. ويعد الاستلزام الحواري خرقا لمبدأ التعاون – وفقا

لغرايس كما سبق ذكره–، لكن بتأمل هذا الموقف يظهر أنه بنى جسرا من التواصل مع المتلقين، بتحريك أفهامهم، ودعوتهم للتفكر في حالهم، فكان الاستلزام أولى وأعلى من التصريح.

وقد كانت الصيغة اللغوية الحاملة لفعل التهديد الضمني لهؤلاء القوم يعتمد على بنية الاستقبال (سوف)، مع إسنادها إلى الصيغة الفعلية المضارعة (تعلمون)، أي أن هذا مما يكون مستقبلا، وكيف وظَّف اسم الموصول الإفرادي (مَن) دلالة على التجهيل في حقهم؛ لأن وقوع العذاب في هذا التوقيت سيلزمهم ويكون في حقهم لعصيانهم وكفرهم، وعندئذ لا ينفعهم هذا العلم، ولذا فإن مخرج التهديد بهذا البناء يتوافق مع دلالة التهكم والسخرية.

كما أن الإشارة التلميحية بتوظيف الاسم الموصول (مَنْ) متكررا في جانب العلم (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ)، وفي جانب الكذب (وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ) مع تيقنهم بتحقق هذين الأمرين في حقهم، فخرج هذا التهديد المشوب بالسخرية والتهكم مخرج الحجة الملزمة القاطعة في حقهم.

ثم كان ختام الآية بقوله (وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) يمثل التهديد المباشر في هذا المقام؛ لأن مخرج الصيغة الأمرية (ارتقبوا) فيها توجيه صريح إلى وقوع أمر قريب عظيم يلزمه الترقب والحذر الشديد من القوم، وقد عاد نبي الله شعيب (عليه السلام) إلى التهكم الضمني مرة أخرى بتوظيف صيغة اسمية مغايرة للفعل الموظَّف هنا هي صيغة (رقيب)، وليس (مرتقِب)، فهم في هذا الترقب لا هو، لأنه سيكون حال وقوع العذاب رقيب عليهم، مما يحمل معه دلالات السخرية والتهكم بهؤلاء القوم.

والذي يلاحظ فيما يتعلق بتوظيف الاستلزام الحواري، أن نبي الله شعيبا (عليه السلام) لم يصرح للقوم بكونه رسولا من عند الله، بل عبَّر عن هذا بما يستلزمه، وهو الأمر بعبادة الله، والتحلي بمكارم الأخلاق، والتخلي عن مفاسدها، حتى بعد استهزاء القوم به، وسخريتهم من صلاته وعبادته، لم يصرح بالرسالة كذلك، بل صرح بما يستلزمها كذلك بقوله: (أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)، فدل بهذا على كونه رسولا دون تصريح، ولعله فعل هذا مناسبة لسياق الابتداء بالدعوة، والتعويل على الصلة بالقوم أولا، والنسبة إليهم، وإنشاء الخطاب مؤسَّسا على الحرص عليهم، وإصلاح حالهم – والله أعلم–.

أما فيما يتعلق بمبدأ (التأدب الأقصى) الذي يتلخص إجمالا في مبدأ (أكثر من الكلام المؤدب)، فقد تحقق – إجمالا– مع تحقق مبدأ التأدب، وقاعدة التودد على وجه الخصوص. أما بالنسبة للقواعد المتفرعة عن هذا المبدأ، وأهمها قاعدة (اللباقة)، التي تنص على ربح الغير، "فقد جعل (ليتش) قاعدة اللباقة هي القاعدة الرئيسة، أما القواعد الأخرى فهي قواعد متفرعة عنها"(٦٧). فقد تحققت – إجمالا كذلك– بحرص نبي الله شعيب (عليه السلام) على تحقيق التضامن مع قومه وتوطيد العلاقة بهم.

وفيما يتعلق ببقية القواعد مثل: (قاعدة التواضع)، و(قاعدة الاستحسان)، و(قاعدة الاتفاق)، فإن تحققها كان بما يحتمله السياق، وما يتعلق منها بطبيعة موقف الدعوة.

فقاعدة التواضع التي توافق آلية (نكران الذات)، قد تجلت في تأكيد نبي الله شعيب (عليه السلام) على أنه لا فضل له في شيء، وإرجاع كل شيء إلى الله (تعالى)، كما في قوله: (إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)، فما به من فضل فهو من رزق الله، والتوفيق منه (تعالى)، كما في قوله: (وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)، وكذلك في تنبيههم إلى ضرورة رعاية حق الله قبل كل شيء، في قوله: (يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

أما قاعدة الاتفاق التي تتلاقي مع آلية (المصانعة)، وقاعدة الاستحسان التي توافق آلية (الإعجاب والمدح)، فلا تحقق لهما هنا في الخطاب، حيث لا يتصور أن يوافق النبي قومه الذين أرسل إليهم لهدايتهم، وتعديل عقيدتهم وسلوكهم، وكذا لا يتصور أن يمدح النبي قومه أو يبدي إعجابا بفعل سوف ينبههم إلى خطئه، ويأمرهم بتقويمه، فلا موافقة إلا في الطاعة، ولا مدح إلا للإيمان والامتثال لأمر الله، والالتزام بمكارم الأخلاق، ولو فعل ذلك لنفى عن نفسه حجة دعوتهم، ولأنهى الخطاب بنفسه.

وحتى الجملة التي صدَّر بها خطابه، ويتصور أنها مدح لهم، وهي قوله: (إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ)، فلم يقصد مدحهم بها، بل قصد أن لكم "ثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف. أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون. أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه"(٦٨). فكان القصد توبيخهم على ما يفعلون من بخس وإنقاص في المكيال والموازين، "مرهباً ومرغباً بالإشارة إلى أن الكفر موجب للنقمة، كما أن الشكر موجب للنعمة"(٦٩).

وعليه فإن تحقق هذا المبدأ بقواعده لا يكون صحيحا إلا في الحدود التي تسمح باستخدامه، كما أنه ليس صالحا لكل خطاب، وليس لكل متكلم أن يوافق أو يستحسن فعل مخاطَبه، وإلا عُدَّ هذا على إطلاقه تضليلا وتدليسا، وهو ما لا يتصور في خطابات الأنبياء – عليهم السلام-.

ثانيا: التضامن في مقطع سورة (الأعراف):

- قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

يمثل هذا المقطع – والله أعلم– إحدى مراحل الدعوة التالية للمرحلة التي صوَّرها المقطع المذكور في سورة (هود)، حيث يظهر من خلاله أنه قد سبقه مواقف كثيرة في سبيل دعوة نبي الله شعيب (عليه السلام) لقومه، يتبين هذا من وجود طائفة مؤمنة وأخرى لم تؤمن، في قوله: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ)، وتهديد القوم بإخراج نبي الله شعيب (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين في قولهم: (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ)، وهذا تهديد مغاير لتهديدهم إياه في مقطع سورة (هود) الذي اقتصر على تهديده وحده، في قولهم: (يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)، وفي هذا دليل على أن الدعوة قد استغرقت وقتا حصلت معها الاستجابة لدعوته من بعض هؤلاء القوم، إضافة إلى وصف القوم بأنهم (الذين استكبروا) مما لم يذكر في مقطع سورة (هود)، وكذلك وصفهم في نهاية المقطع بأنهم (الذين كفروا)، في قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ).

وإني أستأنس هنا بقول الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في بداية تفسيره لقصة شعيب (عليه السلام) في سورة (الأعراف): "يترجح أن كلامه – أي شعيب (عليه السلام)– هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته، بل هو مما خاطبهم به بعد أن دعاهم مرارا، وبعد أن آمن به من آمن منهم"[٧٠]. ولذلك وجدنا حضورا للاستراتيجية التضامنية، لكن ليس بالدرجة نفسها التي تم توظيفها بها في مقطع سورة (هود) – المقطع الذي مثَّل بداية الدعوة–، نتيجة لمعايشة القوم مدة في الدعوة، وتحمل أذاهم وجحودهم، وكثرة جدالهم،

وتهديدهم لنبي الله (عليه السلام). ويمكن تفصيل ذلك من خلال تحليل مبادئ التخاطب ووسائل التضامن في هذا المقطع.

وفيما يخص مبدأ التعاون، فقد تحقق في خطاب شعيب (عليه السلام) من خلال قواعده (الكم- الكيف- المناسبة- الطريقة)، ويدلل هذا على العناية بالرسالة المراد تبليغها، التي هي أساس الخطاب، ووجهة مرسله، وقصد صانعه.

فبخصوص قاعدة (الكم) جاء الخطاب موافقا للحاجة والغرض، فدعاهم في هذا المقطع – كما في سابقه- إلى عبادة الله (سبحانه وتعالى)، في قوله:(ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ)، وتوفية الميزان، وعدم البخس فيه، في قوله: (فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ)، والنهي عن الفساد في الأرض، في قوله: (وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ)، فجمع لهم كل ما يراد تبليغه إياهم من أوامر، وكل ما تشمله رسالة النبي، "فالله تعالى حكى عن شعيب (عليه السلام) أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء: الأول: أنه أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء فقال: (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ)، والثاني: أنه ادعى النبوة فقال: (قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ)، ويجب أن يكون المراد من البينة هاهنا المعجزة لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئا لا نبيا فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه...والثالث: أنه قال: (فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ)، واعلم أن عادة الأنبياء -عليهم السلام- إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر أنواع

المفاسد بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب (عليه السلام) مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة"(٧١).

أما قاعدة (الكيف) فقد كان تحققها مرتبطا بقول الصدق، والتدليل على ما يقول بما أوحي إليه، فهو نبي مبلغ رسالة ربه، مؤيد بأمارات صدقه، دل على هذا قوله: (قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، وهذا يوضح تدليله لهم، وذكره أمارات صدقه، ودلائل نبوته، "أي: قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقيقة ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة إليكم، لأنه لا بد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله"(٧٢). وهذا مغاير لقوله في مقطع سورة (هود): (أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)، فشعيب (عليه السلام) في أول الدعوة قد أثبت حصول البينة لنفسه فقط، أما في مقطع سورة (الأعراف) فقد أثبت حصول البينة للقوم أنفسهم؛ في دلالة على تقدم الدعوة، وتطور مراحلها لدى القوم المدعوين، وثبوت البينة التي تؤيد نبوته ورسالته لهم أنفسهم؛ مما يتأسس معه تحقق أعلى لقاعدة (الكيف)؛ بثبوت الدليل لدى المتلقي.

وقد راعى شعيب (عليه السلام) قاعدة (المناسبة) بمراعاة المقال للمقام، ومخاطبة القوم بما يعلمه عنهم في سابق دعوته لهم، ومجيء الخطاب مغايرا في بعض جوانبه للخطاب السابق في بداية الدعوة الذي مثله مقطع سورة (هود) – كما سأوضح من خلال مبدأ التأدب–، كما ثبت تحقق قاعدة (الطريقة) بوضوح الخطاب وترتيبه.

أما مبدأ (التأدب)، وقواعده التي تتفرع عنه (التودد، والتعفف، والتشكك)، فقد وُظِّف في هذا المقطع كذلك، لكنه موازنة بالمقطع المذكور في سورة (هود) يتبين أن تمثيل حضور مبدأ التأدب كان بصورة أقل مما كان عليه في مقطع (هود)، تماشيا مع سياق هذا المقطع، وملابسات إنتاجه التي أشرت إليها سابقا، فالبنسبة لقاعدة (التودد)، وهي: (لتظهر الود للمخاطب) وجدنا أن درجة التودد من شعيب (عليه السلام) للقوم أقل من سابقتها، فقد دعاهم مرة واحدة فقط في بداية الخطاب (يا قوم) في قوله: (يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ). على عكس المقطع المذكور في سورة (هود) الذي تصدر هذا النداء فيه كل جملة خاطبهم بها.

ولم يتكرر هذا النداء منه في هذا المقطع إلا بعد هلاكهم، حيث ذكر تعالى بعد قوله: (فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ)، قوله تعالى: (فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ)، فكان النداء بعد هلاكهم تفجعا وتحسرا، "فظاهر العطف بالفاء أن هذا التولي كان بعد هلاكهم، ومشاهدة ما جرى عليهم، فيكون الخطاب على سبيل التفجع عليهم والتحسر لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا والاغتمام لهم، وليسمع ذلك من كان معه من المسلمين، فيزدادوا إيمانا وانتفاء عن معصية الله، واقتضاء لما جاء به نبيه عن الله"(٧٣). فكان وقوع النداء للقوم الهالكين، ومخاطبتهم إنما هو لتقريعهم، وتحقق الاعتبار بهم، "فخطابهم بعد هلاكهم وموتهم جاء توبيخا وتقريعا كما خاطب النبي (ﷺ) الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث في الصحيح وفيه فقال عمر: (يا رسول الله

كيف تكلم أقواما قد جيفوا؟ فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون)[٧٤]. وقيل إنما خاطبهم بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها"[٧٥].

والذي أرى أنه سبب لهذا الاختلاف في صورة ندائهم في المقطعين، أن ذلك أثر لكثرة صدودهم، وعدم امتثالهم لأمر نبيهم، حيث طالت مدة الدعوة وما زالوا على تكذيبهم وجحودهم، الأمر الذي بدأ معه شعيب (عليه السلام) يشعر بالمغايرة عنهم، والخروج من دائرة الصلة بهم، إذ صار الناس في القرية فريقين: مؤمن، وكافر، فهو إن كان أخاهم نسبا، فإن هذه الأخوة بدأت تتلاشى بكفرهم وعدم إيمانهم، لتصبح الأخوة الحقيقية هي أخوة بينه وبين المؤمنين معه. لكنه على الرغم من هذا ما زال آملا في هدايتهم، حريصا على استجابتهم، داعيا الله لهم، وقد دعاهم (قومه) كذلك في ندائه ربه، حيث قال: (رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ)، "وفيه إشارة إلى ميله إلى الدعاء بهدايتهم، وأدب بعدم التصريح بما لم يؤذن له فيه، (بالحق) أي: بالأمر الفيصل من معاملة كل من المحقّ والمبطل بما يستحقه شرعاً وعرفا، بحيث يكون لكل فريق باب يصل به إلى غاية أمره، وهذا مقام الإنصاف، فقد علم من إشارة قوله العناية بقومه، ومن عبارته الإنصاف من نفسه"[٧٦]. فكانت نسبة نفسه إليهم بكونهم (قومه) في دعاء ربه تدليلا على بقية صلته بهم، ورغبة في استمالتهم، والتعلق بأمل هدايتهم.

وفي اختلاف لدرجة التودد في هذا المقطع عن المقطع السابق في سورة (هود) كذلك وجدنا أن نبي الله شعيبا (عليه السلام) قد أطنب في زجر القوم على

فسادهم في الأرض بدرجة أكبر مما كانت عليه في بداية الدعوة، وهذا يتناسب مع السياق الذي يمثله هذا المقطع، الذي يتطلب زيادة زجرهم، وتذكيرهم بما هم عليه، حيث ظهر ذلك في قوله: (وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾)، وهذا مقابل لقوله في مقطع (هود): (وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، وهي مجرد إشارة في مقابل هذه العبارة، تظهر مقامات التودد في بداية الدعوة، وفي هذه المرحلة من مراحلها.

أما فيما بتعلق بالقوم فلم يظهروا أي درجة من التودد لنبي الله شعيب (عليه السلام)، إذ كان ردهم المباشر على خطابه هو التهديد بالإخراج، في قولهم: (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ)، "فقد ظهرت غلظتهم وجفاؤهم بقولهم: (يا شعيب) من غير استعطاف ولا إجلال"(٧٧). فجاء تهديدهم له ومن معه من المؤمنين بالإخراج من القرية. وكان نداؤهم إياه (يا شعيب) في موضع التهديد لا يحمل أي درجة من درجات التضامن، وهو ما يثبت – كما سبق ذكره– أن السياق هو المحدد لدرجة التضامن في توظيف أي قسم من أقسام (العَلَم)، وأنه ليس مطردا أن يكون توظيف الاسم دالا على التضامن.

ورغم أن القوم قد هددوا نبي الله شعيبا (عليه السلام) تهديدا مباشرا بالإخراج، فإن نبي الله شعيب (عليه السلام) قد تخفف في تهديدهم في مقام الدعوة، إذ جعل التهديد بأسلوب الاستلزام، وليس مباشرا، مما يمكن عدُّه داخلا في باب التودد،

حيث لم يباشرهم بالمصير الذي يؤول إليه المكذبين الكافرين، بل قال لهم: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)، فأمرهم بالانتظار حتى يحكم الله بينهم، ليتبين مصير المؤمنين والكافرين، "وهو من باب التهديد والوعيد الشديد لهم"(٧٨)، فالله يحكم بينهم "بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. وهو خير الحاكمين إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه"(٧٩).

فيكون قد أضمر التهديد لهم، وجعل المعنى المراد مستلزما في قوله، وفيه كذلك تطمين للمؤمنين معه، حيث يحثهم على الصبر؛ لأن الله لا محالة يحكم بينهم وبين الكافرين، وحكمه هو نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، "وهذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة، إذ برز المُتَحَقَّق في صورة المشكوك فيه،...وهو أيضا من بارع التقسيم، إذ لا يخلو قومه من القسمين...وينبغي أن يكون قوله: (فاصبروا) خطابا لفريقي قومه من آمن ومن لم يؤمن، و(بيننا) أي بين الجميع، فيكون ذلك وعدا للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجة الصبر...وعيدا للكافرين بالعقوبة والخسار"(٨٠).

وعليه إذا كان الاستلزام – وفقا لغرايس– خرقا لمبدأ التعاون أو إحدى قواعده، ومنها قاعدة (المناسبة) التي تنص على أن يناسب المقال المقام، فأي مناسبة تلك التي تحققت بهذا الاستلزام؟، حيث لم يهدد القوم مباشرة في موقف دعوتهم ورجاء هدايتهم، بل جعل تهديدهم تلميحا، واشتملت جملة الوعيد المستلزَم للكافرين على الوعد المرجو للمؤمنين، فوقع الاستلزام هنا في موضعه الذي لا يشغله غيره، ولا يؤدي التصريح ما يؤديه هو.

ويلاحظ في توظيف الاستلزام كذلك، أن شعيبا (عليه السلام) قد عبَّر عن إرساله إلى قومه في هذا المقطع – كما في مقطع (هود)– بطريق الاستلزام كذلك، حيث ذكر ما يستلزم كونه رسولا في إثبات الحجة عليهم، وهو قوله: (قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ)، "يعني: معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله: (قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ)، لأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئا لا نبيا"(٨١).

فذكر لهم ما يستلزم كونه رسولا، وهو معجزته التي تثبت ذلك، وتؤيد صدق رسالته ودعوته، وهو ما فعله في مقطع (هود) كذلك، حيث أثبت رسالته لهم بطريق الاستلزام، في قوله: (أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗا)، لكن الذي اختلف هنا أنه نسب مجيء البينة لهم، وأنها قد جاءتهم، بحيث صاروا عالمين بصدق رسالته لوقوع المعجزة التي تؤيد ذلك أمامهم، أما في أول الدعوة فنسب البينة لنفسه، فناسب كلٌ سياقه ومقام وقوعه.

ولكن الذي اختلف في هذا المقطع أنه أثبت الرسالة تصريحا بعدما أشار إليها إضمارا واستلزاما، وذلك في قوله: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ)، وكأنه أراد أن يؤكد المعنى المقصود من الاستلزام، فصرَّح به لكي لا يكون للقوم حجة في نفي معرفتهم بكونه رسولا، فأخبر بذلك إضمارا، وأكده تصريحا. وهذا تطور في جانب إعلامهم برسالته (عليه السلام)،

ذلك الذي جمع فيه بين الإضمار والتصريح، بعد أن اكتفى بالإضمار فقط في مقطع سورة (هود).

وفيما يخص قاعدتي (التعفف والتشكك) ضمن مبدأ (التأدب)، فتحققهما كما سبقت الإشارة في مقطع سورة (هود) يتعلق بالسياق، ويحمل على القصد الذي يوجه الخطاب، والذي تتوجه به الأوامر والنواهي من النبي المرسل على النصح والإرشاد، وليس على الإلزام والتوجيه -كما سبقت الإشارة إليه-. والذي يتوجه به إصرار النبي على النصح، وحرصه على توجيه المخاطبين نحو الاستجابة، بما يبدو- ظاهريا – خرقا لقاعدتي التعفف والتشكك اللتين توجبان ترك حرية الاختيار للمخاطب على أنه مبلغ التأدب مع المخاطبين، إذ أي أدب أعلى من هدايتهم إلى طريق النجاة، وحمايتهم من مصير الكافرين المكذبين في الدنيا والآخرة.

أما عن مبدأ (التأدب الأقصى) فقد تحقق – إجمالا- مع تحقق مبدأ التأدب، وقاعدة التودد على وجه الخصوص. وبالنسبة للقواعد المتفرعة عن هذا المبدأ، وأهمها قاعدة (اللباقة)، التي تنص على ربح الغير، والتي تحققت جزئيا في ضوء حرص نبي الله شعيب (عليه السلام) على التضامن مع القوم، من خلال ما تحقق في قاعدة التودد كما سبق بيانه.

وفيما يتعلق ببقية القواعد مثل: (قاعدة التواضع) التي تقابل آلية (نكران الذات)، فقد كان نبي الله شعيب (عليه السلام) متواضعا في خطابه مع قومه، تجلَّى هذا في نسبته كل فضل لله (سبحانه وتعالى)، بداية من إشارته لكونه مرسلا من عند الله (سبحانه وتعالى) في قوله: (قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ)، ثم تصريحه بذلك في

قوله: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ)، وكذلك إرجاعه الحكم لله في قوله: (فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)، وتعليق كل شيء بإرادة الله (ﷻ): النجاة من الكفر، وإمكانية الرجوع إليه، في قوله: (قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا).

أما (قاعدة الاستحسان) التي توافق آلية (الإعجاب والمدح)، و(قاعدة الاتفاق) التي توافق آلية (المصانعة)، فلم يتحققا هنا في خطاب شعيب (عليه السلام) لقومه، كما سبق بيانه في مقطع (هود) أنه لا يتصور أن يوافق أو يستحسن النبي فعل قومه الذي أتى لردهم عنه، ودعوتهم إلى تغييره، والانتهاء عنه، ظهر هذا في أمرهم بالانتظار للفصل بين الفريقين، في قوله: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)، بل ظهر هذا بصورة أوضح في خطابه لهم بعد هلاكهم، عندما قال: (يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ)، حيث إنه لما حزن على قومه، "أنكر على نفسه، فقال: فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم؟! ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني، فكيف آسى عليكم؟ يعنى أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى"(٨٢). فهم غير مستحقين للحزن عليهم، لمباينتهم له في العقيدة، وصدودهم عن طريق الله، "فنبَّه على العلة التي لا تبعث على الحزن وهي الكفر"(٨٣). لذا فإنه –كما سبق ذكره– أن هاتين القاعدتين لا تكونان مقبولتين

إلا إذا كان الخطاب يسمح بتوظيفهما، وألا يكون في توظيفهما تدليس أو تضليل، وهو ما لا يتصور في خطاب الأنبياء.

ثالثا: التضامن في مقطع سورة (الشعراء):

- قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

هذا ثالث المقاطع التي ذكرت فيها قصة نبي الله شعيب (عليه السلام)، ويبدو – والله أعلم– أن هذا المقطع يمثل مرحلة متأخرة من مراحل الدعوة، لما بدا فيه من خفوت للاستراتيجية التضامنية، ووضوح العناية بجانب التبليغ على حساب جانب التهذيب، فقد ظهر في هذا المقطع أثر تلك المدة الطويلة التي دعا فيها شعيب (عليه السلام) قومه، والمواقف الكثيرة التي دعاهم فيها، وهم على حالهم من الصدِّ والإعراض والتكذيب.

وإذا كان المقطعان السابقان بينهما درجة من التشابه في توظيف الإستراتيجية التضامنية – وإن اختلفت درجة هذا التوظيف–، فإن هذا المقطع قد خبت فيه الإستراتيجية التضامنية، وبدا شعيب (عليه السلام) محمَّلا بهذا العناء

الذي عانى منه في دعوتهم، وضائقا صدره بعنادهم، فانعكس هذا على خطابه معهم في هذا المقطع، "فهناك سياقات لا تناسبها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التهذيب وعوامل التخلق، ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة، منها ما يتعلق بأولوية التوجيه على التأدب في خطابات النصح والتحذير وغيرها، فالمرسل يولي عنايته فيها لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطاب بإغفال جانب التأدب التعاملي الجزئي في الخطاب"(٨٤). ويمكن توضيح هذا من خلال موازنة هذا المقطع مع المقطعين السابقين من جهة، وكذا التحليل لمبادئ التخاطب فيه من جهة أخرى.

لقد بدأ الاختلاف في هذا المقطع من أول جملة فيه، حيث إن له مفتتحا مختلفا عن المقطعين السابقين، وكذلك عن تلك اللمحة التي ذكرت فيها القصة في سورة (العنكبوت)، فقد افتتحت القصة في (الأعراف- هود- العنكبوت) بقوله تعالى: (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)، فنسبت هذه المواضع الثلاثة شعيبا (عليه السلام) إلى قومه، وأنه أخوهم المنتسب إليهم، أما هذا المقطع في سورة (الشعراء) فإن له مفتتحا مختلفا، فقد افتتح بقوله تعالى: (كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾)، فلم ينسب شعيبا (عليه السلام) إليهم، ولم يُنصَّ على أنه أخوهم كما في غيره من المواضع. وهذا المفتتح كان له أثره في الدلالة على وجود التضامن في الخطاب في هذا المقطع، حيث كان مقطع (الشعراء) هو أقل هذه المقاطع في توظيف الإستراتيجية التضامنية.

فقد نسب القوم إلى ما يعبدونه، وهو (الأيكة)، فقال تعالى: (كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ)، "وهؤلاء -أعني أصحاب الأيكة -هم أهل مدين على الصحيح.

وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: (كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)، لم يقل: (إذ قال لهم أخوهم شعيب)، وإنما قال: (إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا (عليه السلام)، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم"[٨٥]. وقد انعكست هذه المغايرة بين شعيب (عليه السلام) وأصحاب الأيكة على الخطاب في المقطع، حيث لم نجد في هذا المقطع – كما في المقطعين السابقين– نداء شعيب لقومه بالنسبة إليهم (يا قوم)؛ لأنه قد انتفت النسبة بينه وبينهم، وبدأ الأمل في إيمانهم واستجابتهم يتلاشى.

وفيما يتعلق بمبدأ التعاون، وقواعده المتفرعة عنه، وجدنا أن شعيبا (عليه السلام) قد استوفى في خطابه هنا – كما في المقطعين السابقين– رسالته، وكل ما يجب عليه تبليغه، من أمر بعبادة الله، وتوفية المكيال والميزان، فقال لهم آمرا بالعبادة: (أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩)، وحاضًّا على توفية الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض: (أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣)، وهذا يؤكد على أن العناية بالرسالة المبلَّغة قد استمر في كل مرحلة من مراحل الدعوة، وأنه رغم كل هذه المدة التي لم يجد فيها شعيب (عليه السلام) استجابة من قومه لم يمل من دعوتهم، بل ظل عنصرا الرسالة (الأمر بعبادة الله– النهي عن الفساد في الأرض) حاضرين في دعوته. لأن الأصل في

الخطاب هو جانب التبليغ الذي قد يقدمه المتكلم بشيء من التهذيب أو لا يقدمه بشيء منه، فالعناية بجانب التبليغ قد وجدت في كل مقطع من مقاطع قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن، لأنه أصل الخطاب وأساسه.

ويلاحظ في هذا المقطع أنه للمرة الأولى يصرِّح شعيب (عليه السلام) تصريحا مباشرا بكونه رسولا، في قوله: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)، حيث اكتفى في المقطع الأول في سورة (هود) بالإشارة إلى هذا، وذكر ما يستلزم الرسالة، في قوله: (أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)، وكذلك أشار إلى رسالته دون تصريح في المقطع الثاني في سورة (الأعراف)، في قوله: (قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)، ثم أتبع ذلك بتصريح (مضمَّن) في قوله: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ).

والذي أظن أنه سبب لتجنب التصريح في المرحلة الأولى والثانية من الدعوة – والله أعلم– أن شعيبا (عليه السلام) أراد أن يجنب نفسه إساءة القوم المباشرة، لأن عادة الأقوام أنهم يصفون رسولهم بالكذب إن دعاهم وواجههم برسالته ودعوته، وقد وجدنا أن القوم في المقطعين السابقين لم ينعتوا شعيبا (عليه السلام) بشيء من هذا، بل هددوه في المرتين دون أن يشيروا إلى شيء بخصوص صدقه أو كذبه، فقالوا في (هود): (وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)، وقالوا في (الأعراف): (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ)، وقد كان تجنب التصريح، والاكتفاء بذكر ما يستلزم الرسالة سبيلا لتوثيق التضامن مع القوم، وتأكيدا على استمرار حسن العلاقة معهم، والرغبة في استمرار الدعوة دون تعكير،

أما في هذه المرحلة الأخيرة من الدعوة فلم يعد المجال متسعا لذكر إشارات، وقد بان من القوم صدهم وجحودهم، فصرَّح برسالته، وعليه للمرة الأولى كذلك صرَّح القوم بتكذيب شعيب (عليه السلام)، إذ باشروه بهذا: (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ).

وليس خافيا تحقق قاعدة (الكيف) المتمثل في التزام الصدق في خطاب شعيب (عليه السلام)، وكذلك النطق عن بينة ووحي، كما ظهر في هذا المقطع تحقق قاعدة (المناسبة) بصورة تعكس في المقال ملابسات المقام، حيث ظهر خطاب شعيب (عليه السلام) بصورة مختلفة عنه في المقطعين السابقين، إذ كان المقام محملا بكثير من مواقف الدعوة السابقة، وقد جاء الخطاب مركزا، موجزا، واضحا في تحقق لقاعدة (الطريقة).

أما بخصوص مبدأ (التأدب) فقد ظهر باهتا في هذا المقطع، حيث اقترب الخطاب من التوجيه، ومال عن التضامن، فلم نجد في الخطاب أي درجة من درجتي (التودد) التي وجدتا في المقطعين السابقين، فلم يخاطب شعيب (عليه السلام) القوم بالنداء الذي ناداهم به سابقا (يا قوم)، بل جاء الخطاب مباشرا دون ندائهم، قال: (أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)، ولم يرد هذا النداء ولا مرة، وهذا اتساق مع سياق المقطع، وتناسب مع قطع الأخوة بين شعيب والقوم، من خلال نسبتهم إلى (الأيكة)، فانقطعت الصلة بهم، وصارت قرابة النسب غير مجدية في ظل ابتعادهم عن طريق الله، وعدم إيمانهم به وعبادتهم له. كما لم نجد نداء القوم كذلك شعيبا (عليه السلام) باسمه كما دعوه في المقطعين السابقين، هذا النداء – مع كونه تهديدا وتقريعا– الذي مثل درجة من

درجات التضامن في خطابهم شعيبا (عليه السلام)، فباشروه بردهم دون نداء، (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)، وهذا شاهد على أن حرص الطرفين على الإستراتيجية التضامنية قد زال، وبدا التودد ليس هدفا في ذاته، وليس سبيلا كذلك لتبليغ الخطاب.

وقد ظهر تقريع شعيب (عليه السلام) للقوم متخلِّلا الأمر بعبادة الله، وتوفية الكيل والميزان، في قوله: (وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)، وهذا مغاير لما تخلَّل الخطاب في المقطعين السابقين، من جمل يحث فيها القوم على الاستجابة، لكنه بدا فيها أكثر تواددا من هذه الجملة هنا، فقد تخلل الخطاب في مقطع (هود) قوله: (إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ)، وقوله: (بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ)، وفي مقطع (الأعراف)، ورد قوله: (ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)، ويظهر ما بين مقطع (الشعراء) والمقطعين في (هود) و(الأعراف) في تباين في جانب التودد في الأمر من جهة، وما بين مقطع (هود) والمقطعين في (الأعراف) و(الشعراء) من جهة أخرى.

أما عن قاعدتي (التعفف والتشكك) فقد بدا من خلال الخطاب عدم التوجه إلى العناية بهما، وضعف الاهتمام بهما، حيث ظهر شعيب (عليه السلام) في خطابه مستنكرا للمرة الأولى، حين بادر القوم بقوله: (أَلَا تَتَّقُونَ)، وجاء الأمر بطاعته للمرة الأولى كذلك، بعد التصريح بكونه رسولا، وذلك من خلال قوله: (إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)، فحثُّ القوم على طاعته لم يرد في

المقطعين السابقين في سورتي (الأعراف) و(هود). مما يدلل كذلك على أن استراتيجية التضامن قد خبت في هذه المرحلة من الدعوة.

وفيما يتعلق بمبدأ (التأدب الأقصى) فإن درجة تحققه إجمالا كانت أقل من درجة تحققه في المقطعين السابقين في (هود) و(الأعراف)، في ضوء عدم الحرص على التودد، وعدم وجود ما يدل على رعايته والعناية به. أما بالنسبة للقواعد المتفرعة عن هذا المبدأ، مثل: الموافقة، والإعجاب والمدح، فإنه كما في المقطعين السابقين لا وجود لهما في ضوء ما سبق أن أوضحته في الموضعين.

الخاتمة:

توصل البحث إلى نتائج جزئية وردت خلاله، أما مجمل ما أثمر عنه هذا التطواف:

- تأسس خطاب شعيب (عليه السلام) ودعوته لقومه – إجمالا- على الإستراتيجية التضامنية، كونه يتخذ الحوار سبيلا لبلوغ مقصده، والتضامن مع القوم المدعوين وسيلة لإقناعهم؛ مراعيا في ذلك ملابسات الدعوة، ومقتضيات الخطاب، وطبيعة القوم المدعُوِّين.

- تحققت الإستراتيجية التضامنية في كل مرحلة من مراحل دعوة شعيب (عليه السلام) لقومه، إلا أن درجة ظهورها كانت مختلفة باختلاف مرحلة الدعوة التي يدعوهم فيها، بحيث يفسِّر السياق درجة التضامن وأدواته في كل مرحلة من هذه المراحل، التي يمثل كل منها مقطع من المقاطع التي وردت فيها القصة في القرآن الكريم.

- مثَّل المقطع المذكور في سورة (هود) تلك المرحلة التي كان شعيب (عليه السلام) بادئا فيها بدعوة قومه؛ لذلك كان أظهر المقاطع الثلاثة في ظهور الإستراتيجية التضامنية، وتوظيف آلياتها وأدواتها.

- مثَّل المقطع المذكور في سورة (الأعراف) مرحلة تالية للمرحلة التي عبَّر عنها مقطع (هود)، ولذلك وجدنا حضورا للاستراتيجية التضامنية، لكن ليس بالدرجة نفسها التي تم توظيفها بها في مقطع سورة (هود)، نتيجة لمعايشة القوم مدة في الدعوة، وتحمل أذاهم وجحودهم، وكثرة جدالهم، وتهديدهم.

– مثَّل المقطع المذكور في سورة (الشعراء) مرحلة متأخرة في الدعوة، لذا ظهر فيه خفوت الإستراتيجية التضامنية، ووضوح العناية بجانب التبليغ على حساب جانب التهذيب، فقد ظهر في هذا المقطع أثر تلك المدة الطويلة التي دعا فيها شعيب (عليه السلام) قومه، والمواقف الكثيرة التي دعاهم فيها، وهم على حالهم من الصدِّ والإعراض والتكذيب.

– تتحدد المقاصد والدلالات في القرآن الكريم وفق مقتضيات السياق القرآني، الذي تقرَّر من خلاله عدم صدق بعض المبادئ التداولية المقرَّرة، ومنها توظيف (الاسم) للدلالة على أعلى درجات التضامن مع المتكلم، وكذا عدم صلاحية بعض القواعد المقررة في مبدأ (التأدب الأقصى) للتوظيف في كل موقف مثل قاعدة: الموافقة، والإعجاب، والاستحسان، وأن استخدامها ينبغي أن يكون في الحدود التي تسمح به، والسياقات التي تمكِّن المتكلم من توظيفها.

– استوفى شعيب (عليه السلام) في كل مراحل دعوته جانب التبليغ، فقد استمرت العناية بالرسالة المبلَّغة في كل مرحلة من مراحل الدعوة، وظل عنصرا الرسالة: (الأمر بعبادة الله– النهي عن الفساد في الأرض) حاضرَيْن في دعوته. مما يدلِّل على أن الأصل في الخطاب هو جانب التبليغ الذي قد يراعي المتكلم فيه جانب التهذيب، أو لا يراعيه، فالعناية بجانب التبليغ قد وجدت في كل مقطع من مقاطع قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن، لأنه أصل الخطاب وأساسه.

– زاوج شعيب (عليه السلام) في دعوته بين التصريح والاستلزام، مراعيا في ذلك سياقات الدعوة، وملابسات الخطاب، ومصلحة المتلقين.

الهوامش

١- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٣٢٢.

٢- السابق، ٣٢٥.

٣- د.شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللغوية، ١٩٢.

٤- رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم (٤٠٧١).

٥- د.إبراهيم المنيف، استراتيجية الإدارة اليابانية، ٩.

٦- فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ٣١٣.

٧- د.إدريس مقبول، الاستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، ٥٤١.

٨ - ينظر: فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ٣١٤.

٩- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٥٣.

١٠- د.إدريس مقبول، الاستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، ٥٤١.

١١- التضامن يرجع إلى الأصل اللغوي (ضمن)، ومعناه كما يذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "الضَّادُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ جَعْلُ الشَّيْءِ فِي شَيْءٍ يَحْوِيهِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ضَمَّنْتُ الشَّيْءَ، إِذَا جَعَلْتَهُ فِي وِعَائِهِ. وَالْكَفَالَةُ تُسَمَّى ضَمَانًا مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ كَأَنَّهُ إِذَا ضَمِنَهُ فَقَدِ اسْتَوْعَبَ ذِمَّتَهُ" ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ض م ن)، ٣٧٢/٣. وينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ض م ن)، ٢٥٧/١٣. ومن ثم لا نلمح صلة بين المعنى اللغوي الأصلي للكلمة في العربية، والمعنى الاصطلاحي (للتضامن) تداوليا.

١٢- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٥٧.

١٣- جورج يول، التداولية، ١٠٦.

١٤- د.محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ٨١.

١٥- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٥٦-٢٥٧.

١٦- هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ١٩٦.

١٧- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٧.

١٨- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٦٣.

١٩- السابق، ٢٦٧.

٢٠- د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ٢٥. وينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٦٨.

٢١- ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٨٨.

٢٢- ينظر: السابق، ٢٧٢-٢٧٥.

٢٣- ينظر: نفسه، ٣٠٤.

٢٤- ينظر: نفسه، ٣١٢.

٢٥- نفسه، ٣٠٦-٣٠٧.

٢٦- ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب ، ٣٠٢.

٢٧- ينظر: السابق، ٣٠٨.

٢٨- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ٨٤.

٢٩- ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني،٩٧.

٣٠- ليتش، مبادئ التداولية، ١١٠.

٣١- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٨. وينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ٣٩٥. جورج يول، التداولية، ٦٨.

٣٢- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٣٨. وينظر: د.صلاح الدين حسنين، الدلالة والنحو، ٢١٤.

٣٣- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٩-١٠٠.

٣٤- د.أحمد كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق، ٢٠٧.

٣٥- د.محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ٣٤.

٣٦- ينظر: د.أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، ٢٧.

٣٧- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١١٧.

٣٨- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٩٩.

٣٩- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١١٧.

٤٠- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٢٤.

٤١- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١١٨.

٤٢- ينظر: د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٢٣.

٤٣- تتلاقى هذه القاعدة مع ما أسماه جورج يول بالطلب القبلي، في قوله: "تتمثل إحدى طرائق تفادي المخاطرة في إعطاء فرصة للآخر لإنهاء فعل الخطر الكامن، على سبيل

المثال سينشأ المتكلمون أولا عادة ما يمكن وصفه بالطلب القبلي بدلا من تقديم طلب مباشر فورا" جورج يول، التداولية، ١٠٨.

٤٤- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان،١٤٠-١٤١.

٤٥- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١٩٢.

٤٦- ينظر: ليتش، مبادئ التداولية، ١٧٤ وما بعدها.

٤٧- د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٤٦-٢٤٧.

٤٨- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١٢٣.

٤٩- الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، ٥٤٤/١- ٥٤٥.

٥٠- الزمخشري، الكشاف، ١٢٧/٢.

٥١- الغرناطي، ملاك التأويل، ٢٠٢/١.

٥٢- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣٦/١٢.

٥٣- السابق، ١٤٣/١٢.

٥٤- الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٨٤/١٨.

٥٣- الزمخشري، الكشاف، ٤١٧/٢.

٥٦- الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٨٦/١٨.

٥٧- الزمخشري، الكشاف، ٤٢٣/٢.

٥٨- ينظر: السابق، ٤٢٠/٢. البيضاوي، أنوار التنزيل، ١٤٥/٣.

٥٩- النسفي، مدارك التنزيل، ٨٠/٢.

٦٠ - د.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ٢٤٢.

٦١- البقاعي، نظم الدرر، ٤٥٩/٧.

٦٢- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٨٧.

٦٣- هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ١٩٢.

٦٤- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٢٧٠.

٦٥- البقاعي، نظم الدرر، ٣٥٦/٩.وينظر: ٣٦٢/٩.

٦٦- الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١٩/١٧.

٦٧- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٣٣٢.

٦٨- الزمخشري، الكشاف، ٤١٧/٢. وينظر: الخازن، لباب التأويل، ٤٩٧/٢.

٦٩- البقاعي، نظم الدرر، ٣٥١/٩.

٧٠- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣٩/٨.

٧١- الرازي، مفاتيح الغيب، ٣١٣/١٤.

٧٢- الخازن، لباب التأويل، ٢٢٦/٢.

٧٣- أبو حيان، البحر المحيط، ٩٨/٥.

٧٤- الحديث في صحيح البخاري، أن ابن عمر - رضي الله عنهما- أخبره، قال: اطلع النبي (ﷺ) على أهل القليب، فقال: "وجدتم ما وعد ربكم حقا؟" فقيل له: تدعو أمواتا؟ فقال: "ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون". رقم (١٣٧٠).

٧٥- الخازن، لباب التأويل، ٢٢٢/٢.

٧٦- البقاعي، نظم الدرر، ٥/٨.

٧٧- السابق، ١/٨.

٧٨- الشوكاني، فتح القدير، ٢٥٦/٢.

٧٩- البيضاوي، أنوار التنزيل، ٢٣/٣. وينظر: النسفي، مدارك التنزيل،٥٨٦/١.

٨٠- أبو حيان، البحر المحيط، ١٠٩/٥.

٨١- الزمخشري، الكشاف، ١٢٧/٢.

٨٢- السابق، ١٣١/٢.

٨٣- أبو حيان، البحر المحيط، ١١٨/٥.

٨٤- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ٣٢٢.

٨٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٥٩/٦.

المراجع:

١- إبراهيم المنيف (دكتور)، استراتيجية الإدارة اليابانية، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م.

٢- أحمد كنون (دكتور)، التداولية بين النظرية والتطبيق، دار النابغة، القاهرة، ٢٠١٥م.

٣- أحمد المتوكل (دكتور)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠١٠م.

٤- إدريس مقبول (دكتور)، الاستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، مجلة كلية العلوم الإسلامية، المجلد٨ ، العدد ١٥، ٢٠١٤م.

٥- البخاري: محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، جدة، ١٤٢٢هـ.

٦- البقاعي: برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧- البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر (ت٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ.

٨- جورج يول، التداولية، ترجمة: د.قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، لبنان، ٢٠١٠م.

٩- الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله (ت٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

١٠- أبو حيَّان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي (ت٧٤٥هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١١- الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم (ت٧٤١هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٢- الرازي: أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٣- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٤- الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٥- شكري المبخوت (دكتور)، دائرة الأعمال اللغوية، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ٢٠١٠م.

١٦- الشَوْكاني: محمد بن علي (ت:١٢٥٠هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير بدمشق، ودار الكلم الطيب ببيروت، ١٤١٤هـ.

١٧- صلاح الدين حسنين (دكتور)، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القـــاهرة، د.ت.

١٨- الطاهر بن عاشور: محمد الطاهر بن محمد (ت١٣٩٣هـــ)، التحريـــر والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٩- طه عبد الرحمن (دكتور)، اللسان والميزان (التكوثر العقلي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.

٢٠- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٤.

٢١- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١١م.

٢٢- الغرناطي: أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت٧٠٨هـــ)، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، تحقيق: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٢٣- ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن فارس (ت:٣٩٥هـــ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.

٢٤- فولفانج هاينه وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: د.فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٩هـــ.

٢٥- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: د.صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ٢٠٠٧م.

٢٦- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢،١٩٩٩م.

٢٧- ليتش، مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م.

٢٨- محمد العبد (دكتور)، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٢٩- محمود نحلة (دكتور)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١م.

٣٠- ابن منظور: محمد بن مكرم (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط ٣، ١٩٩٩.

٣١- النسفي: عبد الله بن أحمد (ت٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٨م.

٣٢- هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة: د.محمد عياد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م.

Abstract

The speech is based on communicating a purpose to the recipient, but it may not be limited in the speech to its informative part only, but is encapsulated in formulas that express the speaker's appreciation of the addressee and his respect for him, which can be called polite formulas, so that the speech comes including his reporting side and is carried on another disciplinary side, which Makes the addressee receptive to that speech, accepting it, and interacting with it. These formulas, which represent the polite aspect of the speech, are known as the solidarity strategy, as they express, with their tools and mechanisms, the speaker's solidarity with the addressee, and his attempt to produce a discourse based on establishing a good relationship with the addressee above all.

The speeches of the prophets in general with their people in the Holy Qur'an represent examples of solidarity strategy, with the specificity of each prophet's speech with his people of course, but in general it is based on this basis, so that dialogue is a way to achieve the goals, and solidarity with the called people is a way to persuade them, and to reach the goal of the sender's message. By the Prophet to them.

Therefore, this research is directed towards studying the solidarity strategy in the story of Shuaib in the Holy Qur'an, for the general nature of its investigation in the speeches of the prophets with their people - as passed - on the one hand, and the specificity of Shuaib's speech with his people, as the Prophet () called him "the preacher of the prophets" ; For a good review of his people; Which foretells the specific use of the solidarity

strategy in the story of Shoaib, through the principles of deliberative discourse, such as the principle of cooperation fo (Grace), politeness of (Lykov), and maximum politeness of (Leach). The research was divided into an introduction, two topics and a conclusion.

key words: Solidarity strategy - solidarity - principles of communication - story of Shoaib Principles of Communication – paragmatics.